

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الرابع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى
الحزب الرابع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

(* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾)

المفـردات :

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ) : أى وإلى أهل مدين . (بِخَيْرٍ) : بسعة فى الرزق والثروة .

(عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) : المقصود من إحاطة اليوم بهم إحاطة عذابه بحيث لا ينجو منه أحد .

(أَوْفُوا) : أتموا وأكملوا . (وَلَا تَبْخَسُوا) : ولا تنقصوا .

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : ولا تمعنوا فى الإفساد فى الأرض قاصدين إضرار الخلق .

(بَقِيَّةُ اللهِ) : ما ادخر عنده من ثواب الصالحات .

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) : وما أنا عليكم بمراقب لأعمالكم فذلك لله وحده أمَّا أنا فناصح ومنذر .

التفسـير

٨٤ ـ (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ......) الآية :

وأرسلنا إلى أهل مدين واحدًا منهم نسبًا هو شعيب ـ عليه السَّلام ـ وكانوا أهل كفر جشعين يبخسون المكيال والميزان ، ولا يوفون الحقوق ولا يحفظون الأمانات .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :

ناداهم متحببا إليهم بقوله : (يَاقَوْمِ) : أى يا عشيرتى أنا منكم وأنتم منى والرائد لا يكذب أهله .

(اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :

بعد أن جذبهم إليه بهذا النداء بدأهم بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة لأنه هو الإله وحده ، فلا يستحق العبادة سواه ، ولقد جرت سنة الأنبياء فى دعوة أقوامهم أن يبدأوا بالدعوة إلى التوحيد لأنه أصل الإيمان ، وبه صلاح الأمر كله ، وهو الأساس الأول ، ثم يتبعون ذلك الدعوة إلى ترك ماهم عليه من النقائص والعيوب الظاهرة ، لذا عقب شعيب - عليه السلام - دعوتهم إلى التوحيد بالنهى عن نقص المكيال والميزان لأنه أعظم عيب تفشى فى قومه فقال :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) :

أى ولا تنقصوهما إذا بعتم للناس إذ لا يليق بكم أن تخونوا فى معاملاتكم بعضكم مع بعض وأن تستحلوا ما تأخذونه من الناس عن طريق النقص فى المكيال والميزان ، فالحق أحق أن يتبع .

(إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ) :

إنى أراكم فى سعة من الرزق والمال والولد فيجب أن تقابل هذه النعم بإعطاء الحقوق لا بالإصرار على الشرّ والفساد وسلب حقوق العباد ؛ فيسلبكم الله نِعَمَه .

(وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) :

أى وإنى أشفق عليكم وأخشى أن يحل بكم عذابُ يومٍ يهلككم جميعا فى الدنيا ويحيط بكم فى الآخرة « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » [1] .

٨٥ - (وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) :

كرر النداء بقوله : (يَاقَوْمِ) حين أمرهم ثانيًا بإتمام الكيل والوزن بالعدل من غير زيادة ولا نقصان حرصا منه على مصلحتهم ونفعهم . فهم قومه وعشيرته .

ثم عقب أمرهم بإيفاء الكيل والميزان بقوله :

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٣

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) :

يريد بذلك إمَّا نهيهم عن أن ينقصوا الناس حقوقهم فى جميع أُمورهم بصفة عامة ، حسية كانت أو معنوية ، وإما تأْكيد أمره لهم بالإِيفاء بالمكيال والميزان بالقسط خاصة بالنهى عن نقصهم الناس حقهم فى الإِيفاء بهما .

والمعنى على الأَول : ولا تنقصوا الناس أُمورهم فى أموالهم وأعراضهم وعقارهم ومنقولهم ، وزرعهم وضرعهم ، وبيعهم وشرائهم ، وغير ذلك مما عزَّ وهان .

والمعنى على الثانى : ولا تنقصوا الناس حقوقهم فى بيعهم وشرائهم ، بعدم إتمامكم المكيال والميزان لهم .

ثم عقب نهيهم عن بخس الناس أشياءهم بقوله :

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

والعُثُوُّ فى الأَرض : الإِفساد فيها ، وقد يحدث لغرض الإِصلاح كحرب البغاة والمرتدين وقُطَّاع الطريق ، وكقتل صاحب موسى للغلام وخرقه للسفينة ، وهذا وإن كان ظاهرهُ الإِفساد فهو جائز للضرورة وقد يكون لغرض الإِفساد والإِضرار بالخلق وهذا هو المذموم والمنهى عنه .

والعثو المذموم يعم جميع أنواع الإِفساد والعدوان كقطع الطريق وتهديد الأَمن وقطع الشجر وقتل الحيوان وغير ذلك ، وقد كانوا يصدون الناس عن اتباع شعيب - عليه السلام - والإِيمان به وينشرون الفساد فى الأَرض قال تعالى : « وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا »[1] .

وقيل : معناه ولا تعثوا فى الأَرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم

ثم زهَّدهم فى تلك الأَفعال القبيحة وأَرشدهم إلى ما هو خير وصلاح فقال :

٨٦ - (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

أَى ما أَبقاه الله لكم من خيرى الدنيا والآخرة بعد إيفاء الكيل والوزن والتنزه عن المحرمات خير لكم وأَنفع من الكسب الحرام وإن كثر ، إن كنتم مصدقين بما شرعه الله لكم

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ٨٦

على لسان شُعيب -عليه السَّلام - لأن الإيمان يستتبع خير الجزاء، فضلا عن أنه يطهر النفس من دناءة الطمع وسائر الخبائث ويحلِّيها بالقناعة وسائر الفضائل ، ثم أثار فيهم الوازع النفسى بقوله :

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) : ولست عليكم بالحفيظ الذى يملك منعكم من الوقوع فى المحرمات ، أو معناه : لست أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح لكم ومبلِّغ « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[1] . وقد بذلت الجهد وأعذرت إذ أنذرت .

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(الحَلِيمُ) : المتأنى الضابط لنفسه الذى لا يتعجل فى الأمور مع القدرة والقوة .

(الرَّشِيدُ) : المتصف بحسن التدبير ودقة التقدير .

التفسير

٨٧ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) :

أى قال قوم شُعيب - ساخرين مستهزئين - ردًّا على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل فى المعاملات أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان التى توارثنا عبادتها عن آبائنا ، إننا ننكر عليك ذلك ولن نترك عبادتها ، وإنما خصُّوا الصَّلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التى دعاهم إليها لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونه فى صلاته بأنها وسوسة خاطر ، وليست وحيًا من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل .

(أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) :

هذا جواب منهم عن أمره -عليه السَّلام- لهم بإيفاء الكيل والوزن مبنى أيضًا على السخرية بما يأمرهم به .

(١) سورة المائدة من الآية : ٩٩

والمعنى : أصلاتك ياشعيب تأمرك أن نترك عبادة أوثاننا أو أن ندع التصرف فى أموالنا حسبما نريد من الزيادة والنقصان ، والأخذ والعطاء على النحو الذى تعودناه مع الناس ، أتريدنا أن نسير فى تجارتنا وشئون أموالنا على هواك الذى زعمت أنه شرع الله ، وهذا الجواب منهم شأن المتكبرين عن اتباع الحق فى كل أمة فإنهم لا يجدون جوابا سوى التمسك بما ورثوه عن الآباء والأجداد فهو الذى يعميهم عن الحق فلا يبصرونه ، « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »[1] ، ثم قالوا مبالغين فى السخرية والاستهزاء :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) :

أى إنك لأنت الذى توصف بيننا بالتأنى والتريث فى معالجة الأمور ، فأين هذه الأوصاف مما تدعوننا إليه ، يريدون بذلك تجريده من صفتى الحلم والرشد ،بدعوى أن مادعاهم إليه لا يصدر عن حليم رشيد .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة .

(وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) : ومنحنى من لدنه النبوة والحكمة وغمرنى بنعمه الكثيرة .

(أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) : أن أخالفكم إلى فعل مانهيتكم عنه .

(وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : وإلى الله أرجع .

(١) سورة الصافات الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

التفسير

٨٨ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) :

فى هذه الآية ردَّ شُعيب -عليه السَّلام- عليهم فى رفقٍ ولينٍ بقوله : ياعشيرتى وأهلى أخبرونى : إن كنت على حجة واضحة وبيِّنة ظاهرة من لدن ربى وقد رزقنى منه رزقًا حسنًا هو النبوة والحكمة ، وهما مناط الحياة الأبدية لى ولكم ، وكذلك المال الوفير ، أفتجعلوننى فى زمرة السفهاء والغواة ، حينما دعوتكم إلى توحيد الله وإيفاء الكيل والميزان.

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) :

وما أقصد بدعوتى هذه أن أورطكم فيما دعوتكم إليه لكى أخالفكم إلى فعل مانهيتكم عنه بعد أن تستجيبوا لدعوتى فأنا أسبق منكم إلى ما دعوتكم إليه .

(إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) :ما أريد بوعظى وتذكيرى لكم إلا إصلاح حالكم فى دنياكم وأخراكم بقدر جهدى واستطاعتى.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ) :وما توفيقى فى التمسك بالحق وحملكم عليه إلا بفضل الله ومعونته .

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : عليه وحده اعتمدت فى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة . وإليه -تعالى- وحده أرجع فى كل مايهمُّنى من أمور وشئون- فلا حول لى ولا قوة إلا بالله فيما أفعل وأقول ، وإنما الحول والطول لله وحده فهو الذى يرشدنى ويسدِّد خطاى . وهو الذى يجازينى على أعمالى فلا أخاف أحدًا سواه .

(وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُمْ ...) الخ : أى لاتكسبنكم مشاقتى ومعاداتى عقوبة مثل عقوبة الأمم السابقة . (رَحِيمٌ) : واسع الرحمة . (وَدُودٌ) : كثير الودّ والمحبة والعطف .

التفسير

٨٩ - (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ) :

أى وقال شُعيب لقومه على طريقته فى التلطُّف فى خطابهم ، حرصا منه على هدايتهم : يا قوم لايكسبنكم شقاقى ومعاداتى أن يصيبكم بسبب ذلك مثل ما أصاب الأُمم التى كذبت رسلها من قبل كقوم نوح ، فقد أهلكهم الله بالطوفان ، وما أصاب عاداً حين كذبوا هوداً ، فقد أهلكهم الله بريحٍ صرصرٍ عاتية ، وما أصاب ثمود حينما كذبوا صالحا فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة لإصرارهم على الكفر والفساد .

(وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) :

وإن لم تعتبروا بهؤلاء المذكورين فما قوم لوط ببعيدين منكم ، فقد عوقبوا بقلب ديارهم ، وأمطر الله عليهم حجارةً من سجيل ، وقد رأيتم ديارهم وما أصابها ، فاعتبروا بحالهم واحذروا أن يحل بكم من العذاب ما حل بهم وهذه سنة الله فيمن كذب رسله ولن تجدوا لسنة الله تبديلا .

ولما أنذرهم سوء عاقبة صنعهم أرشدهم إلى طريق النجاة طمعا فى استجابتهم فقال :

٩٠ - (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) :

أى واتعظوا بما وقع لهؤلاء واطلبوا مغفرة ربكم لما وقعتم فيه من الشرك والمعاصى ، ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة ولاتيئسوا من عفو الله ورحمته ، لأن ربى وربكم واسع الرحمة كثير الودِّ والمحبة والعطف فيرضى عمَّن يتوب ويرجع إليه ، فسارعوا إلى ما يستوجب رحمته ومحبته .

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) : ما نفهم مرادك . والفقه : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس.

(رَهْطُكَ) : الرهط الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة . ورهط الرجل قومه وقبيلته.

(بِعَزِيزٍ) : بصاحب قوة ومنعة .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) : تركتموه وراء ظهوركم . والمراد أعرضتم عنه ونسيتموه.

(مُحِيطٌ) : أحاط علمه بكل شىء وأحصاه فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم .

(اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم .

(وَارْتَقِبُوا) : وانتظروا عاقبة ما أقول .

التفسير

٩١ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ) :

دعا شعيب قومه متلطفا فى دعوتهم إلى الإيمان والاستغفار والتوبة فأجابوه فى جفاء واستعلاء قائلين : يا شعيب ما نفهم كثيراً من قولك ، ولا نعلم حقيقة ما تقصد إليه

من دعوتنا إلى ترك عبادة الأوثان ومنعنا من التصرف فى أموالنا ، وتهديدك إيانا بعذاب يحيط بنا ويُبيدنا ، أجابوه بذلك مع وضوح حجَّته وقوة برهانه وظهور مراده ، واشتمال كلامه على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، ولما عجزوا عن محاجته هددوه باستعمال القوة حين قالوا :

(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) :

أى وإنا لنشاهد ضعفك بيننا ، ونعلم أن لا قدرة لك على شىء ، ولا تستطيع أن تمتنع عنا إن أردنا أن نفتك بك .

(وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) :

ولولا احترامنا لعشيرتك وأهلك الذين ثبتوا على ديننا ، ولم يؤثروك علينا ، ولولا رهطك هؤلاء لقتلناك رجما بالحجارة .

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) :

أى ولست عندنا قويًّا منيعا تستطيع أن تدفع ما نريده بك أو تحول بيننا وبين قتلك وإهلاكك .

وما يمنعنا عنك إلا أننا نُقَدِّر رهطك وعشيرتك ونحترمهم ونعزهم ، ونسى هؤلاء الغافلون قوته وعزته برب العالمين ، فلهذا وبَّخهم شُعيب على غفلتهم هذه — كما حكاه الله عنه بقوله :

٩٢ — (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ) :

قال لهم شُعيب ردًّا على هذا التهديد والاستهزاء : أعشيرتى وأهلى يا قوم أعزُّ وأكرم عليكم من الله ذى العزة والقدرة ، وقد دعوتكم بأمره إلى ما يصلح شئونكم فى الدنيا والآخرة فأعرضتم عنه .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) :

أى ونبذتم أمره وتركتموه وانصرفتم عنه كالشىء المهمل وراء الظهر فلا يلتفت إليه لعدم الاعتداد به .

(إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) :

أى إن ربى لا يخفى عليه شىءٌ من أموركم فعلمه محيط بجميع أعمالكم وأقوالكم ،

وسيجازيكم عليها يوم القيامة حيث لاتغنى قوتكم عنكم شيئا ، وهذا تهديد بليغ ووعيد شديد بالعذاب الأليم إن أصروا على الكفر والعناد .

٩٣ - (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) :

وقال لهم مهدداً أيضا : يا قوم اعملوا ما شئتم بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وابذلوا جهدكم فى مضارتى ، فإن ذلك لا يصدنى عن الدعوة إلى الله .

ثم أكد ذلك بقوله : (إِنِّى عَامِلٌ) : أى إنى سأعمل بقدر استطاعتى وجهدى فى الطريق الذى أمرنى الله بالسير فيه دون أن أخشى تهديدكم ووعيدكم .

(سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) :

أى سوف تعلمون علم اليقين من سيحيق به العذاب المذل المهين جزاء ضلاله ومن هو كاذب منا - أنا أم أنتم - وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القدرة على رجمه - عليه السلام - وفى نسبته إلى الضعف والهوان وأنهم لولا رهطه لرجموه .

(وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ) :

وانتظروا ما أتوعدكم به من العقاب على كفركم وعصيانكم إنى معكم منتظر عاقبة أمركم ، مراقب لها ، وفى هذا أبلغ تهديد وأعظم وعيد لهم ، وفيه إظهار ثقة شعيب بنصر ربه وتأييده له .

(وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب من الجثوم ، وهو للناس بمنزلة البروك للإبل.

(يَغْنَوْا فِيهَا) : كأن لم يقيموا فيها ، يقال غنى بالمكان يغنى أى أقام به وعاش فى نعمة

ورغد ، (بُعْدًا) : هلاكًا ، يقال : بَعِد بكسر العين يَبْعَد بفتحها من باب طرب يطرب : بمعنى هلك ، وأما بَعُد بالضم فمعناه ضد قرب .

التفسير

٩٤ ـ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...) الآية .

بعد أن هددهم شعيب وأوعدهم جاءت هذه الآية تحقيقا لوعيده لهم .

والمعنى : ولما جاء أمرنا بعذابهم نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به وصدقوه واتبعوه بسبب رحمة منا عظيمة شاملة إذ وفقناهم للإيمان الصادق والطاعة الخالصة ففازوا بالنجاة من الهلاك .

(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) :

أى وأخذت الصيحةُ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى من قوم شعيب .

(فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :

أى فأصبحوا من شدتها ميِّتين خامدين فى أماكنهم ، وهذه الصيحة هى التى عبر عنها فى سورتى الأعراف والعنكبوت (بالرجفة) أى الزلزلة ولعل الصيحة من روادف الرجفة ، فإن الزلزلة تحدث تموجا فى الهواء ، يترتب عليه صفير وصياح ، فلذا سميت بالصيحة ، وقيل صاح بهم جبريل فهلكوا .

٩٥ ـ (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) :

أى كأنهم لم يقيموا فى هذه الديار ، ولم ينعموا بها ولم يتقلبوا فى خيراتها وبركاتها ، فقد ذهب ما كانوا يعتزون به ، ولم يبق لهم إلا ما قدموه لأنفسهم مما استحقوا به العذاب والإبعاد من رحمة الله .

(أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) :

أى ألا هلاكا لهم كما هلك سابقوهم وهم ثمود قوم صالح ، وإنما شبه هلاكهم بهلاك ثمود لأن عذاب كليهما كان بالصيحة ، قال ابن عباس : ما أهلك الله أُمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم اهـ .

ويستفاد من قصة أهل مدين قوم شعيب ما يلى :

- أن نقص الكيل والوزن من الكبائر وتخشى منه العقوبة العاجلة وأنه من أكل أموال الناس بالباطل .

- وأن الصلاة مشروعة للأنبياء السابقين لقولهم لشعيب : « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ » الآية .

- وأن من كمال الداعى المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يدعو غيره إليه .

- وأن وظيفة الرسل الإصلاح بقدر الاستطاعة .

- وأن العبد يجب عليه أن يتكل على ربه بعد الأخذ بالأسباب ويسأله التوفيق وأن يرجع إليه فى كل أموره على الدوام .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أعطاها الله لموسى عليه السلام معجزة دالة على صدقه .

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : حجة بالغة لها سلطان بيِّن على العقول السليمة .

(مَلَإِيهِ) : أى رؤساء قومه وزعمائهم ، وسموا ملأً لأنهم يملئون العيون بوجاهتهم .

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ) : يتقدمهم ويقودهم إلى النار . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) : أى تسبب فى دخولهم النار .

(وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) : أى وبئس المكان الذى يردونه ــ النار .

(وَبِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) : بئست اللعنة المعطاة لهم فى الدارين عطاؤهم .

التفسير

٩٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء عاقبة المكذبين من قوم شعيب جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ماآل إليه أمر المكذبين لموسى من فرعون وملئه تأكيدا للغرض من سوق هذه القصص وهو العظة والاعتبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى بالآيات التسع وهي العصا واليد يخرجها من جيبه بيضاء من غير سوء ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الأنفس والثمرات وأيدناه بالحجج البينة التي أقامها على فرعون وقومه أثناء دعوته إياهم إلى الإيمان حين قال له فرعون : « فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى » . وقوله : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ».ونحو ذلك حيث بين لهم الحقائق الإلهية والشريعة التي بعث بها بياناً لا سبيل إلى رده كقوله له : « رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ».وقوله عن القرون الأولى : « عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى » .[1] إلى غير ذلك مما حاجّ به موسى فرعون وقومه .

٩٧ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) :

أي أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون ورؤساء قومه فاتبعوا أمر فرعون لهم بالكفر بما جاء به موسى من عند الله ، وأعرضوا عن الآيات الواضحة والأدلة الباهرة .

(وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) :

أي وما أمرهم به فرعون بصائب وسديد حتى يتبعوه ويتركوا الحق المبين « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ[2] » . وقدبين الله مصير فرعون وقومه في الآخرة فقال :

(١) سورة طه الآيات : ٤٩ — ٥٢

(٢) سورة الزخرف من الآية : ٥٤

٩٨ - (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) :

أى إن فرعون كما كان قدوة للكفار من قومه جميعاً فى الضلال فى دار الدنيا ،كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة وهم يتبعونه .

وأصل الورد لغة : الماء الذى يرده الناس ليرتووا منه ويطفئوا به ظمأهم ، وقد دلت الآية على فساد رأى فرعون وسوء حاله حيث قادهم إلى النار وبئس الورد الذى يردونه لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك ، ولو أنه قادهم إلى الحق لنجَّى نفسه وقومه ، ولكن صدق الله إذ يقول : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » .

وإنما عبر بالماضى فى قوله : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » بدل التعبير بالمضارع « يُورِدُهُم » المفيد لحصول ذلك فى المستقبل للإيذان بتحقق هذا الوعيد . وحمل بعضهم الآية على ظاهرها وهو أنهم وردوا النار فعلا منذ موتهم استناداً إلى قوله تعالى : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[1] .

٩٩ - (وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى واستحق آل فرعون بسبب كفرهم أن يلعنهم الناس فى الدنيا والآخرة ، وأن يطردهم الله من رحمته يوم القيامة - فاللعنة حالَّة بهم فى الدارين .

(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى بئس الجزاء الذى حل بهم من الهلاك فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة . وسُمِّى هذا الجزاء الأليم رفدا من باب السخرية بهم - إذ الرفد فى اللغة بمعنى العطاء .

(١) سورة غافر آية : ٤٦

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(قَائِمٌ) : أى باق بعد أن هلك مكانه.

(حَصِيدٌ) : بمعنى محصود ، والمحصود الذى اندثرت معالمه .

(تَتْبِيبٍ) : إهلاك وتخسير .

التفسير

١٠٠ - (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيد) :

أى ذلك الذى مرَّ ذكره بعض أخبار أهل القرى التى أرسلنا إليها رسلنا فكذبوهم فأهلكناهم - ذلك المذكور - نقصه عليك ونبيِّنه عبرة وعظة للكافرين ، وتثبيتًا لك ولأُمتك المؤمنين ، من هذه القرى ما هو باق وقد خلا من أهله ومنها ما انطمست معالمه كالزرع المحصود الذى لم تبق منه باقية .

١٠١ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) :

أى وما أهلكنا هؤلاء بغير ذنب ارتكبوه لأن هذا ينافى عدلنا الذى قامت به السموات والأرض ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بشركهم بالله وإفسادهم فى الأرض وصدهم عن ديننا الذى شرعناه على ألسنة رسلنا فاستحقوا الهلاك الذى حل بهم .

(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ) :

أي فما نفعتهم معبوداتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ولا دفعت عنهم أى شىء من عذاب الله الذى أنذرهم به الرسل .

(وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) :

أى وما زادتهم معبوداتهم على ما هم عليه من سوء الحال إلا هلاكًا وخسرانا ، حيث لم يشفعوا لهم كما زعموا ، بل وضعوا فى النار مثلهم .

(وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾)

المفردات :

(أَخْذُ رَبِّكَ) : أى إهلاك ربك إياهم . (أَلِيمٌ) : شديد الإيلام .

التفسير

١٠٢ ـ (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) :

أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب الذى مر بيانه ـ يهلك الله أهل القرى فى حال ظلمها ، تطهيرًا للأرض من أهل الظلم .

(إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) :

أى إن إهلاك الله للظالمين وجيع شديد الإيلام لا مفر منه ولا مناص؛ وفى هذا تحذير لكل من ظلم غيره فحرمه حقه ، وصده عن سبيل الله ، وظلم نفسه بما اقترفه من آثام ، فعليه أن يبادر بالتوبة قبل فوات الأوان .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(لَآيَةً) : لعبرة وعظة . (مَّشْهُودٌ) : كثير شاهدوه من الملائكة والرسل ومن كل بر وفاجر .

(لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) : لانقضاء مدة قليلة قضاها الله حسب حكمته .

التفسير

١٠٣ – (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) :

أى إن فيما قصه القرآن من إهلاك الأُمم السابقة بسبب كفرهم بالله تعالى ، وإصرارهم على تكذيب رسله – إن فى ذلك لعظة بالغة وعبرة عظيمة للذين يخافون عقاب الآخرة ، فيحملهم هذا الخوف على سلامة النظر ، وحسن الاعتبار ، وسرعة الاستجابة إلى دعوة الحق ، وقيل المراد بهؤلاء الخائفين : المؤمنون ، فهم المنتفعون بالعظات والعبر ، والباحثون عن سبل السلامة من غضب الله وعقابه ليسلكوها .

(ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) :

أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب هؤُلاء الكفار المعاندين – هو يوم مجموع له الناس جميعًا ليجزى الله كل امرىء بما قدمت يداه ، وهو يوم مشهود بما يقع فيه من أهوال حيث يحضره أهل السموات والأرضين ، من ملائكة وإنس وجن .

١٠٤ - ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ :

أى وما نؤخر هذا اليوم الذى يجمع له الناس إلا لنهاية زمان محسوب بدقة تامة منا ، فلا يتقدم عن هذه الغاية ، ولا يتأخر عنها ، وقد استأثر الله تعالى بعلمه ، وأخفاه عن عباده ، لحكم كثيرة يعلمها قال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »(١) .

وإنما عبر الله عن الأجل المحسوب بالأجل المعدود ، ليشير بذلك إلى قلته ، فإنه لا يعد فى العادة إلا القليل ، ولا شك أن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة لما مضى منها قليل ، ولذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد بين الله شدة هذا اليوم وهوله بقوله :

١٠٥ - ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ :

أى حين يأتى هذا اليوم الذى أجل عقابهم إلى مجيئه ، لا تتكلم أى نفس إلا بإذن الله تعالى ، فلا سلطان فيه لأحد من الملوك والرؤساء ، فقد فنى سلطانهم وزال كبرياؤهم وملكهم ، وانفرد الله وحده بالملك والعزة والسلطان ، كما قال تعالى فى سورة غافر : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . وفى سورة الحج : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » . وفى سورة الفرقان : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ » .

ويتجلى سلطان الله تعالى وجلاله يومئذ على نحو ما بينه الله بقوله فى سورة النبأ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » . وبمقتضى هذه الآية وعدالة الله تعالى ، يأذن الله للكفار والمذنبين فى الدفاع عن أنفسهم كما قال تعالى فى سورة النحل : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا » . فإذا قامت حجة الله عليهم بعد جدالهم عن أنفسهم ، خرست ألسنتهم ، ولم يؤذن لهم بالاعتذار حينئذ ، فقد ظهرت حجة الله عليهم واتضح

(١) آخر سورة النازعات .

أنه لاعذر لهم ، كما قال تعالى فى سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمُ لَايَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) :

أى فينقسم الناس فى هذا اليوم إلى قسمين : قسم شقى بكفره ومعصيته ، وقسم سعيد بإيمانه وطاعته ، ثم بين الله مصير الأشقياء بقوله :

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(شَقُوا) : كانوا أشقياء فى الدنيا بكفرهم ومعاصيهم . (زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) : الزفير : إخراج النَّفَس من الصدر بمشقة ، والشهيق : إدخاله فيه بمشقة كذلك ، والمراد بهما تلاحق أنفاسهم فى النار من شدة العذاب .

التفسير

١٠٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) :

أى فأما الذين قُضى عليهم بالشقاء بسبب كفرهم ومعاصيهم فى الدنيا وإطفائهم نور الفطرة التى فطرهم الله عليها ، فهؤلاء مستقرون فى النار تتلاحق أنفاسهم فيها زفيرًا وشهيقًا من حرج صدورهم وشدة كروبهم ، ويأسهم من النجاة منها وهم فيها دائما كما قال تعالى فى سورة النساء : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[1] : ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

---

(١) من الآية : ٥٦

١٠٧ – (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . . .) الآية .

المراد من السموات والأرض سماوات اليوم الذى يجمع له الناس وأرضه ، فإن دوامها باق لانهاية له ، أما سماوات الدنيا وأرضها فهى زائلة ، كما قال تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ » [١] فلا معنى للتوقيت بدوامها لعدم وجودها يوم عقابهم وهو يوم القيامة ومن المفسرين من فسرها بسماوات الدنيا وأرضها ، وقال إنه ليس الغرض من النص الكريم ربط خلودهم بدوام سموات الدنيا وأرضها التى تزول والتى لاتكون موجودة يوم القيامة بل المراد التأبيد ونفى الانقطاع ، مخاطبة لهم بالأسلوب الذى اعتادوه فى هذا الصدد ، كقول أحدهم لا أفعل كذا ما لاح كوكب ، فإنه لا يقصد أنه لا يفعله ليلا مدة ظهور الكواكب ولكن يفعله نهاراً ، بل يقصد أنه لا يفعله أبداً ، ثم قال : أما إحالة التأبيد على دوام سماوات الآخرة وأرضها ، فهى إحالة لهم على شىء لايعرفونه بل ينكرونه ، لأنهم لايعترفون بالآخرة ، كما حكاه الله عنهم بقوله : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » [٢]

والظاهر من الآية هو الوجه الأول ، فإنهم كما ينكرون الآخرة ودوام سماواتها وأرضها ينكرون وعدها ووعيدها ، ولكن هذا الإنكار لايمنع أن يتوعدهم الله بعذاب الآخرة ، ويصف لهم أهوالها لعلهم يرجعون .

(إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

ظاهر هذا الاستثناء أنه تعالى يشاء خروج الأشقياء من النار ، وأن خلودهم فيها ينقطع عند هذه المشيئة ، وقد حمل هذا التوهم بعض المفسرين على أن يقول : إن المراد بالذين شقوا ، الذين ارتكبوا ما يشقيهم ولا يسعدهم سواء أكانوا كفارا أم مؤمنين عصاة ، ويحمل الاستثناء عند صاحب هذا الرأى على عصاة المؤمنين ، وكأنه قيل : فأما الذين شقوا بكفرهم أو معاصيهم ، ففى النار خالدين فيها أبدا إلا من شاء ربك عدم خلودهم من عصاة المؤمنين . [٣]

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

فلا يمنعه أحد من العفو عنهم لإيمانهم بعد ما عذبوا على ذنوبهم .

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨ (٢) سورة المؤمنين ، الآية : ٣٧

(٣) والاستثناء على هذا من الضمير المستكن فى خالدين ، ولفظ (ما) بمعنى من ، كما فى قوله تعالى «والسماء وما بناها» أى ومن بناها .

ورأى بعض آخر من المفسرين أن المراد بالذين شقوا هم الكفار ، وأن المراد بقوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إلا الوقت الذى شاء الله فيه أن ينقلوا من عذاب النار إلى عذاب آخر كالزمهرير وغيره ، فأمرهم دائر بين التعذيب بالنار والتعذيب بغيرها ولا أمل لهم فى انقطاع العذاب عنهم بأى وجه . أو إلا الوقت الذى يتوقفون فيه فى الموقف للحساب ، وقيل الاستثناء ليس من خلودهم فى النار ، بل من قوله تعالى: « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » .

والمعنى على هذا : فأما الكافرون الذين شقوا بكفرهم ففى النار لهم فيها زفير وشهيق حال خلودهم الأبدى فيها ، لا ينقطع زفيرهم وشهيقهم إلا مدة يشاؤها الله ، يكون تعبيرهم فيها عن كربهم بغير الزفير والشهيق .

ونقل القرطبى فى الوجه الرابع فى تفسيره لها عن ابن مسعود أنه قال : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ليتجدد تعذيبهم . ولعله استمد هذا الرأى من قوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[1] .

تلك خلاصة الآراء المشهورة فى تفسيرها ، وفيها آراء ومباحث أخرى . فليرجع إليها فى المطولات من شاء المزيد .

(۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(سُعِدُوا) : بضم السين قراءة الأعمش وحفص والكسائى ، قال الثعلبى : أى رزقوا السعادة ، يقال سُعِد وأُسْعِدَ بمعنى واحد ، وقرأ الباقون بفتح السين على أسلوب شقوا .

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : أى غير مقطوع عنهم .

(١) سورة النساء ، من الآية : ٥٦

التفسـير

١٠٨ ـ (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) :

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الفريق الثانى من أهل الموقف فى يوم مجموع له الناس ومشهود ، وهو فريق السعداء بعد أن تحدثت الآيتان السابقتان عن فريق الأشقياء والكلام فى معنى ما دامت السموات والأرض هنا ، كالكلام فى مثله فى الفريق الأول .

أما قوله (إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ) فإنه يوهم أن خلود السعداء فى الجنة ينقطع ولا يدوم حينما يشاءُ الله قطعه ، وهذا يتنافى مع التصريح بعدم قطعه فى قوله سبحانه :(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : كما يتنافى مع آيات كثيرة ناطقة بأبدية النعيم فى الجنة لهم ، وقد أُجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها أن اليوم المشهود يبدأُ من البعث ، وأن السعداء لا يدخلون الجنة حين بعثهم ، فإنهم كغيرهم يحشرون للموقف ، ويحاسبون . ثم ينعم الله عليهم بدخول الجنة بعد أن يقضى لهم بذلك عدالة منه وفضلا ورحمة ، فالوقت الذى قضوه فى اليوم المشهود قبل دخولهم الجنة ، هو المستثنى بقوله (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ولا يضر هذا المعنى أن الاستثناء وقع من أول اليوم لا من آخره . كما تقول جلست فى البُستان يوما إلا ثلاث ساعات من أوله ، فإنه تعبير صادق وسليم من الناحية اللغوية .

ومنها أن الاستثناء بالنسبة إلى الوقت الذى ينقلون فيه من نعيم الجنة إلى ما هو أعلى منه ، من الفوز برضوان الله الذى هو أكبر من الجنة ، كما قال تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ »[1] .ولهم أيضا ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه ، قال الزمخشرى : والدليل على هذا قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[2]

(١) التوبه : من الآية (٧٢) .

(٢) أنظره فى الكشاف تعليقا للزمخشرى على قوله تعالى فى حق الكفار : « مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك» فقدتعرض فى كلامه فيها إلى ما يماثلها فى حق المؤمنين هنا .

ومما قيل فى تأويلها : إن الاستثناء بالنسبة إلى عصاة المؤمنين ، فإنهم يغيبون عن الجنة فى الوقت الذى يعاقبون فيه على معاصيهم ، ثم يؤمر بدخولهم الجنة ، فلذا قيل فى حقهم (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) : أى إلا من شاء ربك من عصاة المؤمنين ، فإن دخولهم فيها ينقطع عند أول دخول الصالحين إياها حتى يعاقبوا على معاصيهم ، فإنهم سيدخلونها ويلحقون من دخلها قبلهم من الصالحين ، وقد وصفوا بالسعادة باعتبار ماآل إليه أمرهم وفيما يلى بيان معنى الآية على ما نرى .

وأما الذين أُنعِمَ عليهم بالسعادة من الله بأن وفقوا للإيمان والعمل الصالح لصفاء فطرتهم فهؤلاء فى الجنة يستقرون ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، لا يبرحونها أبدًا ، إلا الوقت الذى يشاءُ الله فيه أن ينعموا بثواب أعظم ، حيث يتجلى عليهم برضوانه ، الذى هو أكبر من الجنة ، وأعظم منها شأنا .

وهناك أيضا ينظرون إليه جل وعلا كما قال فى سورة القيامة : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .(١) وحيث ينعم الله عليهم بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعلم كنهه سواه ، يعطيهم الله هذه النعم دائما ، عطاءً غير مجذوذ عنهم ولاهم عنه ينصرفون .

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(فِى مِرْيَةٍ) : فى شك . (نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) : جزاءهم كاملا .

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

التفسير

١٠٩ -(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ) :

بعد أن بين الله تعالى عقاب الأشقياء وثواب السعداء أنذر أهل مكة بأن عبادتهم قائمة على الضلال وأنهم سيلقون مصير الأشقياء الضالين إذا أصروا على شركهم .

والمعنى لايتطرق إليك - أيها الرسول - شك فى ضلال هؤلاء المشركين وإن ادعوا أنهم يتقربون إلى الله بعبادة هذه الأصنام حيث قالوا : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »[١] .

وهو ادعاء باطل لايقوم على عقل رشيد أو رأى سديد ، لأن الأصنام لاتملك التقريب والإبعاد من الله تعالى ، فهى لاتملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا فكيف تملكهما لغيرها .

(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ) :

أى أنهم لايؤدون عبادتهم تطبيقًا لكتاب منزل ، . أو إطاعة لنبى مرسل ، أو تأثرًا بعقل مفكر ،وإنما يؤدونها تقليدًا أعمى لآبائهم وأجدادهم الضالين دون رَوِيَّة أو تفكير « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »[٢] .

(وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) :

أى وإننا لمجازوهم على عقيدتهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة جزاءً كاملا غير منقوص ، كما جازينا الأمم السابقة بسبب كفرهم وعتوهم « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ». والجملة هنا مؤكدة بأكثر من مؤكد للإنذار والترهيب .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٣

(٢) سورة الصافات الآيتان ٦٩ ، ٧٠

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾)

المفـردات :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) :لولا وعد سبق منه سبحانه بتأجيل العذاب حتى حين يعلمه . (شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) : شك مزعج محير مقلق .

التفسير

١١٠ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ . . .) الآية .

بعد أن ختم الله الآية السابقة بوعيد مشركى قريش بأنهم سينالهم نصيبهم من العقاب وافيًا ، جاءت هذه الآية مسلية للنبى صلى الله عليه وسلم بأن خلاف قومه عليه لم ينفرد به ، بل هذا هو الشأن فى جميع أمم المرسلين ، وضرب له مثلا بقوم موسى حيث اختلفوا عليه ، وأكد له أن عقابه سينزل بمن كفر به من قومه ،كما نزل بمن كفروا برسله من قبله ، وسيكون نزوله فى الوقت الذى عينه سبحانه لهذا العقاب ، فلا استعجالهم يقدمه ولا إنكارهم يؤخره ،كما قال تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ »[(١)] وقال سبحانه : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[(٢)]

والمعنى : ولقد أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام فبلغها إلى قومه ولكنهم اختلفوا فيها ، فآمن بها بعضهم ، وكفر بها آخرون ، حتى آل أمرهم إلى عبادة العجل ، فلا تبال

(١) سورة الحج ، من الآية : ٤٧

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٥٣

يا محمد باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن، وقولهم: « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ». وزعمهم أنك افتريته، فالكفر كله ملة واحدة.

وإذا كان الله تعالى لم يعجل عقوبتهم فى الدنيا بالاستئصال، فلن يفلتوا من العقاب فى الآخرة بأشد العذاب، حيث سبقت كلمته بتأجيل عقابهم إليها لحكم يعلمها، وفى ذلك يقول الله تعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ):

أى: ولولا قضاء سبق من ربك يا محمد بتأجيل عقوبة قومك المختلفين عليك إلى يوم القيامة لقضى بينهم بتعجيل عقوبتهم على كفرهم، وإنجاء المؤمنين منه ليتميز المحقون من المبطلين.

وقيل إن الكلام فى قوم موسى، والمعنى: لقضى بينهم بعقابهم عاجلًا على اختلافهم فى أمر التوراة. ويبعد هذا الرأى أن الآية مسوقة لتسلية الرسول على اختلاف قومه عليه، بما حدث لموسى من اختلاف بنى إسرائيل عليه، ولبيان أن عقوبة قريش على كفرهم به مؤجلة فى علم الله ليوم الوعيد، ولولا ذلك لعجل بها لهم.

(وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ):

أى وإن قومك يا محمد لفى شك من القرآن موقع فى حيرة لهم، ولو أنصفوا لبادروا إلى الإيمان به، فإن مبعث ريبهم هو استمساكهم بدين الآباء وتعصبهم له، وعدم إصغائهم إلى الناصح الأمين [1].

ويصح أن يكون المعنى: وإنهم لفى شك من تعذيبهم على كفرهم مقلق لنفوسهم وقد أخطئوا فى هذا الشك، كما يشير إليه قوله تعالى:

١١١ - (وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا [2] لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ):

(١) فالضمير فى لفظ (منه) عائد على القرآن وإن لم يذكر فى الكلام، قال أبو السعود فى بيان ذلك (فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه، لاسيما بصدد التسلية ينادى بذلك نداء غير خفى) : أه أى ينادى بعوده إلى القرآن وإن لم يذكر.

(٢) يرى أبو عبيدة أن لفظ (لما) فى قوله تعالى: « لما ليوفينهم ربك أعمالهم » بمعنى جميعا، وأصله بالتنوين — وقد قرئ به، ثم بنى على فعلى، وهو مأخوذ من لممته بمعنى جمعته، وقد اخترنا هذا الرأى لأنه أقرب الآراء وأيسرها وأبعدها عن التكلف برغم ما وجه إليه.

أى وإن كلا من المختلفين فيه مؤمنين وكافرين ، جميعًا والله ليوفينهم ربك يا محمد جزاء أعمالهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

إنه تعالى بما يعمله المحسنون والمسيئون عليم أدق العلم وأوسعه ،فما تخفى عليه منهم خافية ومن كان كذلك ، فإنه سبحانه سيوفيهم جزاء أعمالهم .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) : نفذ ما أمرناك به دون ميل عنه بزيادة أو نقص .

(وَلَا تَطْغَوْا) : أى لاتتجاوزوا الحد الذى أمرتم به وذلك بالإفراط أو التفريط .

(وَلَا تَرْكَنُوا) : ولا تميلوا .

التفسير

١١٢ - (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا) :

أى إذا علمت يا محمد أن كلاًّ من المؤمنين والكافرين سيوفيهم ربك جزاء أعمالهم فدم على ما أنت عليه من الاستقامة على شرع الله الذى شرعه لك عقيدة وعملا ، وليستقم عليه من تاب عن الشرك والكفر ليكون معك ويشاركك فى الإيمان ، ولا تتجاوزوا الحد بإفراط ممل أو تفريط مخل .

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

فيجازيكم على عملكم وفق ما علمه من أدائكم له ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن قصر فعليها .

وقد دلَّت الآية على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحراف عنه بمجرد الرأى، فإنه طغيان وضلال .

وأما العمل بمقتضى الاجتهاد المترتب على علل المنصوص، فذلك من باب الاستقامة أيضًا، لقوله تعالى: « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ [1] ».فإنه أمر بالقياس،ومثال ذلك قياس عصير القصب إذا أسكر فى الحرمة، على الخمر المنصوص على حرمتها ـ لعلة الإسكار ـ المشتركة بينهما .

والغرض من توجيه الأمر بالاستقامة على أمر الله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى مقدمة من آمن وتاب ـ إلى الله وأصبح فى معيته، الغرض من ذلك. أن يعلم الناس أن عبادة الله وأوامره واجبة الاتباع حتى بالنسبة للأنبياء، وأنهم فى مقدمة المكلفين بذلك، لأنهم قدوة لأقوامهم، فلا يباح لهم الخروج على أمره وعدم الاستقامة عليه بإفراط، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، ولا بتفريط فإنهم مكلفون بكمال العمل، لأنه حق له تعالى، وليكونوا أسوة لغيرهم، ولأنه تعالى طيب فلا يقبل إلا طيبًا ـ كما جاء فى الحديث الشريف .

ولقد كانت شدة الالتزام بكمال الامتثال من النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة وغيرها، داعية إلى مشيبه صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: « شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما » . أخرجه الترمذى .

ومن هذا وأمثاله يعلم أنه لا طبقية فى الإسلام، فالكل عباد الله، وأنه لافرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين نبى وغيره فى التزام شريعة الله ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول للزهراء رضى الله عنها: « اعْمَلِي فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا ». وكان يقول أيضًا: « وَاللهِ لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » .

وقد أوجب الله تعالى على عباده ما يسهِّل عليهم الاستقامة عليه من فعل الواجبات وترك المحرمات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: « إن الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، واسْتَعِينُوا بالْغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ ». أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب الحج ـ ومن تتبع التكاليف الشرعية وجدها سهلة ميسرة على

(١) سورة الحشر، من الآية: ٢.

القوى والضعيف والغنى والفقير ، مع ما فيها من الترخيص لأصحاب الأعذار بالرخص الكثيرة ، كإسقاط الحج عن فاقد الاستطاعة ، والصوم عن الحائض والنفساء والشيخ الفانى ، وغير ذلك كثير .

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن بعض الصحابة نذر أن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل عابدًا ولا ينام ، ولا يتزوج النساء ، خطب فى الصحابة ناهيًا عن ذلك وقال : « إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلّٰهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّى أَصُومُ وأُفْطِرُ وأُصَلِّى وأَرْقُدُ وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى » أخرجه الشيخان .

وكانت عبادته صلى الله عليه وسلم وسطًا لا إفراط فيها ولا تفريط ، مراعاة للطاقة البشرية لأمته ، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كُنْتُ أُصَلِّى مَعَ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَتْ صَلاَتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا » .

فعلى المسلمين أن يستقيموا على أمر الله ، فإن الدين يسر لا عسر ، وليعلموا أن الله مطلع على أعمالهم وعباداتهم ومجازيهم عليها حسب أدائهم لها ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

١١٣ ـ (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة على أمر الله دون إفراط أو تفريط جاءت هذه الآية ناهية عن الميل إلى الظالمين والتعاون معهم .

والمراد بالظالمين الكافرون ، أو كل ظالم ولو كان مسلمًا ، والمراد بالركون إليهم محبتهم والاعتماد عليهم ، والأخذ بمشورتهم ، وقد نهى الله فى الآية عن ذلك الركون وتوعد عليه بمساس النار ، فإذا كان هذا مآل من يميل إليهم ، فما ظنك بمن يشاركهم فى عاداتهم ، ويديم معاشرتهم ، ويتزيَّ بزيهم تقليدًا لهم ، ويعاونهم على ظلمهم ،لا شك أن عذابه يكون أشد وأعظم ، ولهذا تعتبر الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والوعيد عليه .

ومما جاء فى السنة نهيًا عن محبتهم ومعاونتهم قوله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ أَحبَّ قومًا حَشَرَهُ اللهُ فى زُمْرتهم » أخرجه الطبرانى ، وقوله : « مَنْ أَعان ظالمًا لِيَدْحَض بِبَاطله حقًّا فقدْ بَرِئَتْ منْه ذِمَّةُ اللهِ وذِمّةُ رَسُولِه » أخرجه الحاكم ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا لِظَالم بالبَقَاءِ فقدْ أَحبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فى أَرْضه » .

فعلى كل مسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه ووطنه وإخوانه المسلمين ، قال تعالى : «يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .[1] وقال سبحانه : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا »[2] .

وبالجملة فإن من أحب الظالمين أو أعانهم على ظلمهم عوقب بالنار بقدر حاله معهم ، وكذلك من استعانوا بهم على قتال إخوانهم المسلمين أو ظلمهم ، أو بعثوا بطائفة منهم للقتال في صف من يريدون استعبادهم أو ظلمهم .

قال تعالى : «لَايَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ »[3] .

وحكى الزمخشرى فى الكشاف أن الموفق الخليفة العباسى صلى خلف إمامه فقرأ الإمام بهذه الآية فخر الموفق مغشيًا عليه فلما أفاق قال هذا فيمن ركن إلى الظالم فكيف بالظالم؟.

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ) :

أى إذا ركنتم إلى الظالمين بأى وجه من الوجوه التى مر بيانها مستكم النار معهم ولن يستطيع أحد إنقاذكم أو إنقاذهم من عذاب الله كما قال تعالى: «لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ »[4] .

ولا شك أن المسلمين يدركون من هذا التحذير ، أن عليهم أن يعتمدوا على الله وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وأن يحذروا موالاة الظالمين ، وأن يدركوا خبثهم وسوء طويتهم بالنسبة إليهم ، فقد علموا ما قاسيناه من لؤم المستعمرين ، وصداقتهم الزائفة ، فقد استنزفوا دماءنا وأموالنا ، وأساءوا إلى ديننا وأخلاقنا ، وعلى المسلمين أيضًا أن يحولوا بين الظالم وظلمه ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى بكر - رضى

---

(١) سورة التوبة الآية : ٢٣

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٤

(٣) سورة آل عمران من الآية : ٢٨

(٤) سورة الأنعام من الآية : ٥١

الله عنه - أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »[1] ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

(وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾)

المفردات :

(طَرَفَيِ النَّهَارِ) : أوله وآخره ، هما الغداة والعشى . (وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) : وساعات منه قريبة من النهار . (وَزُلَفًا) : جمع زلفة - من أزلفه إذا قربه .

التفسير

١١٤ - (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة ، وأن يتركوا الركون إلى الظالمين ، أمرهم بما يعينهم على ذلك من اللجوء إلى الله بأداء الصلاة بضع مرات أثناء الليل والنهار .

وقد وجه الأمر فى هذه الآية إلى النبى صلى الله عليه وسلم - مع أن المراد به أمته معه - لأنه إمام المؤمنين ورسولهم ، فتكليفه تكليف لهم ، إلا ما نص على تخصيصه به كالتزوج بأكثر من أربع مجتمعات .

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٥

والمعنى : وأدّ الصلاة بأركانها وشروطها فى طرف النهار – الغداة والعشى – فأما صلاة الغداة فهى الصبح ، وأما صلاة العشى ، فهى الظهر والعصر ، وأقم الصلاة أيضا فى ساعات من أول الليل ، بأن تؤدى صلاتى المغرب والعشاء وبهذا التأويل تضمنت الآية الكريمة الصلوات الخمس التى كلف الله بها عباده المؤمنين يوميا .

قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان وإليها يفزع فى النوائب – وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . اهـ .

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ) :

هذا التعقيب تعليل للأمر السابق بأداء الصلاة ، يشير إلى أن الحسنات وعلى رأسها الصلاه تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا حدث من المؤمن انحراف عن الاستقامة ، أو ميل إلى الطغيان ، أو جنوح إلى الظالمين ، وذكر المؤمن ربه وتاب وأناب ، وفزع إلى الصلاة ، غفر الله له ما ارتكبه من آثام فإن الصلاة كما تنهى عن الفحشاء والمنكر تطهر النفوس من الأدران والأوشاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيه كل يَوْم خَمْسًا ، مَا تَقُولُ : يُبْقِى ذَٰلِكَ مِنْ دَرَنه ؟ قَالُوا لَا يُبْقِى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ فَذَٰلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهَا الخَطَايَا » .

أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلوات عن أبى هريرة .

وجاء فى سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امراة قُبلةً حراماً . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم . فسأله عن كفارتها فنزلت فقال الرجل أَلِيَ هذه يارسول الله ؟ قال لك ولمن عمل بها من أمتى » أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .

وفى معنى الآية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأتبع السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُق حَسَن » رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى.

وقد يمن الله على عبده إذا أحسن التوبة وأكثر الحسنات فيبدل سيئاته حسنات كما قال سبحانه : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات »(١)

١١٥ ـ (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

إن التزام الاستقامة والقصد ، واجتناب الظالمين ، وإقامة الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان والشروط ، كل هذا يستدعى الصبر فلذا أمر الله به فى هذه الآية كما أمر به فى غيرها كقوله تعالى « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »(٢)

وقد أوصى الله سبحانه بالاستعانه بالصبر والصلاة على أداء الطاعات واجتناب الموبقات حيث قال تعالى : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »(٣)

فمن أطاع الله واتقاه وفاه الله أجره كاملا لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »(٤)

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَوْلَا) : هلا . (الْقُرُونِ) : جمع قرن ، وقدره بعضهم بثمانين سنة ، وبعضهم بسبعين سنة والجمهور على أنه مائة سنة ، والمراد من القرون هنا أهلها من الأمم السابقة .

---

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٠
(٢) سورة طه من الآية : ١٣٤
(٣) سورة البقرة الآية : ١٤٥
(٤) سورة الأعراف من الآية : ٥٦

(أُولُوا بَقِيَّةٍ) : أصحاب رويّة وتفكير ، وأطلق عليهم ذلك لأنهم لا يعجلون بإبداء الرأى ، بل يبقونه حتى يمحصوه ، ويدركوا صوابه فيجهروا به

(مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) : ما تنعموا به .

التفسير

١١٦ - (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ) :

هذه الآية تشير إلى الأمم المهلكة التى ورد ذكرها فى هذه السورة ، لو كان فيهم كثير من العقلاء يقاومون الفساد ويضربون على أيدى الطغاة المستبدين ويحتكمون إلى العقل المؤيد للرسالات السماوية ، لو كان فيهم كثير من هؤلاء العقلاء الذين يكفونهم عن الفساد والإفساد لما حقت عليهم كلمة العذاب . فإن من سنن الله الكونية أن يأخذ الأمم بعذابه الشديد إذا عَمَّ فيهم الفساد وانتشر بينهم الضلال ، وأصبح المعروف بينهم نادرًا ، والمنكر شائعا « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1]

والمعنى : فهلا وجد من هؤلاء الأقوام المهلكة الذين تقدم ذكرهم فى هذه السورة هلّا وجد منهم جماعة كثيرة أصحاب بقية من العقل والرويّة ينهونهم عن الفساد والإفساد فى الأرض ، لينجوا من الهلاك . لكن قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن ذلك فسلموا ونجوا منه .

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) :

أى إن القلة القليلة من العقلاء لم تستطع القضاء على الفساد . وأما الكثرة الكاثرة الظالمة لنفسها فقد انغمست فى الترف والنعيم وأمعنت فى الفساد والضلال . استجابة لما جبلت عليه من حب الجريمة والإجرام فاستحقت الهلاك والدمار .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٣

١١٧ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) :

وما صح ولا استقام عقلا أن يهلك الله أهل هذه القرى بظلم وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ويؤمنون بخالقهم ، فإن إهلاكهم وهم مصلحون ينافى صفة الحكمة التى يتصف بها العليم الحكيم ، وينافى السبيل الذى اختاره سبحانه لمعاملة عباده ، وهو الذى جاء فى قوله تعالى: « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] وقوله سبحانه: « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[2] » .

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متحدة فى الدين لا خلاف فيه بينها .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب حكمه وقضاؤه الأزلى - (الجِنَّةِ) : الجن .

التفسير

١١٨ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) :

ولو أراد الله ربك سبحانه وتعالى أن يكون الناس جماعة واحدة فى دينها وتقواها واتزان عقولها ، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ولا إفساد ، لو أراد ربك ذلك لوقع ، ولكنه لم

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة يونس الآية : ٤٤

يرده ، بل خلقهم وأودع فيهم العقل ، وأعطاهم الاختيار ، ووضح لهم الطريق ، وأقام الحجة بإرسال الرسل حتى تكون عقيدتهم وعملهم بكسبهم واختيارهم ، ولكنهم اختلفوا بسوء رأيهم فى هذا كله ، وأضاعوا فطرتهم المستقيمة المفطورة على الحق إلا من عصم الله منهم فثبتهم عليه

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) :

ولا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق ، وبعضهم على الباطل ، بعضهم يستعمل عقله . ويسترشد بما رسمه له الرسل فيهتدى ، وبعضهم لا ينتفع بذلك ، بل يتبع هواه فيضل ويغوى .

١١٩ - (إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) :

أى لا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ، إلا من رحمهم الله ربك فهداهم ولطف بهم فإنهم يتفقون على الدين الحق ، ولا يختلفون فيه ، لأنهم يقبلون عليه سبحانه بقلوبهم وعقولهم فيحسن استقبالهم ويعينهم بفضله ورحمته .

(وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) : اللام فى قوله (وَلِذَٰلِكَ) للعاقبة والإشارة راجعة إلى اختلاف الناس

والمعنى : وخلقهم على الفطرة السليمة ، لتكون عاقبتهم أن يختلفوا ، وما كان ينبغى لهم أن ينتهوا إلى ذلك ، وقد منحهم الله العقل والتمييز ، وأرسل إليهم الرسل ليهدوهم سواء السبيل ، ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلودٍ يُولَدُ عَلَى الفطرةِ فَأَبَوَاهُ يهودَانِهِ أَوْ يُنَصرَانِهِ ، أَوْ يمجّسَانِهِ » وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ »[1]

ومن العلماء من جعل الإشارة فى قوله : « وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » إلى الرحمة فى قوله : « إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ » .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٧٩

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معنى (وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) : وللمذكور من رحمة الله تعالى خلقهم ، يريد ابن عباس ومن معه ، أنه تعالى خلقهم على استعداد فطرى لرحمة الله ، لكنهم أفسدوا فطرة الله بسوء اختيارهم ، وحرموها من رحمته جلّ وعلا .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب قضاءُ ربك العادل .

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) : وجب قضاؤه أن من الخلق من يستحق الجنة لأنه زكى نفسه فأفلح وفاز ، ومنهم من يستحق النار لأنه دنس نفسه بالمعاصى فخاب وخسر ، وأن النار لابد من أنها ستملأُ من الأشقياء من الثقلين الجن والإنس ، الذين لايهتدون بما أنزله الله من كتب ، ولا يؤمنون بمن أرسل من الرسل ، وذلك لعلمه سبحانه وتعالى بكثرة من يختار الباطل على الحق ، ويؤثر الضلال على الهدى بمحض اختياره ، وحرمان أنفسهم من تقبل رحمة الله ومعونته .

(وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(نَقُصُّ) : من قص يقص ، والقص تتبع أثر الشيء للإحاطة والعلم ، ثم أُطلق على الإخبار لما فيه من تتبع الأحداث رواية .

(أَنبَاءِ) : جمع نبأ وهو الخبر الهام .

(نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) : المراد من تثبيته زيادة ثباته فى أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، أو اعملوا على حالكم ومنزلتكم التى أنتم عليها من الكفر والمعاصى ، والأمر للتهديد .

التفسير

١٢٠ - (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) :

بعد أن قصَّ الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة قصص أشهر الرسل وعاقبتهم مع أممهم من نجاة المؤمنين ، وإهلاك المكذبين ، ذكر فى الآية فائدة ذكر هذه القصص .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء هؤلاء الرسل مع أممهم نقص عليك يا محمد ونخبرك بما نثبت به فؤادك ، حيث تدرك منه أنك لست وحدك الرسول الذى كفر به قومه ، فكل الرسل كانوا كذلك فصبروا حتى ظفروا بإعلاء كلمة الله ، وهزيمة الشرك ودك معالمه ، وإهلاك أهله ، فإذا علمت أن الرسل من قبلك قاسوا ما تقاسى ، هان عليك ما تقاسيه ، فإن البلوى إذا عمت هانت ، وإذا هانت عليك قوى قلبك واشتدت عزيمتك على المضى فى سبيل ربك ، وقوى احتمالك للإيذاء والصبر على أداء الرسالة .

وفى مثل هذا المعنى يقول الله تعالى « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ »[1]

(وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) :

ولقد جاءك فى هذا القصص من أنباء الرسل وأقوامهم بيان جامع للحق وللموعظة وتذكير المؤمنين ، حيث يتعظون بما حل بالأمم السابقة من هلاك ودمار فيبتعدون عن أسبابه وموجباته .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٣٤

وإنما عبر بقوله :(وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) مع أنه فى الحقيقة أنزل لوعظ الناس جميعًا ، لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بما فى هذه القصص من الوعظ والتذكير .

١٢١ ـ (وَقُل لِّلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) :

وقل أيها الرسول للمشركين الذين أعرضوا عن دعوتك فلم يؤمنوا بما جئتهم به ، قل لهم مهددًا وَمُوَعِّدًا : اعملوا بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وبكل ما أوتيتم من قوة على مقاومة الدعوة والصد عنها ، إنا عاملون فى تبليغ الحق ، دائبون عليه لايثنينا عن عزيمتنا كفركم ولا يردنا عن دعوتنا طغيانكم ، أو عاملون بما أنزله ربنا ، لايصرفنا عنه صارف ، ولا يمنعنا منه كَفَّارٌ أثيم .

١٢٢ ـ (وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ) :

وترقبوا ما تتمنون لنا من هلاك إنا مترقبون أن يحل بكم مثل ما حل بالأمم السابقة التى كذبت رسل ربها وصدت عن سبيله .

١٢٣ ـ (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى ولله وحده علم ما غاب فى السموات والأرض ، فلا يخفى عليه شىء من سركم وجهركم .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) :

وإليه وحده مرجع الأمر كله فى الدنيا والآخرة ، لا إلى أحد غيره ، فيرجع إليه لا محالة أمرك يا محمد وأمرهم ، فيجازى كلاً بما اعمل

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) :

وإذا كان مرجع الكل إلى الله وحده لا إلى غيره فدم على ما أنت عليه من عبادته وحده مخلصًا له العبادة ، وتوكل عليه فى جميع أمورك ، فإنه يكفيك كل ما أهمك ويكفلك فى جميع أحوالك .

واعلم أن الأخذ بالأسباب المشروعة لاينافى التوكل على الله ، ولذا أوجبه الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ »[1] . وقوله : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ »[2] .وأمر به الرسول بقوله لصاحب الناقة : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » : أى اعقل ناقتك أولا ، ثم قل توكلتُ على الله .

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

وما ربك بغافل عما تعمله أنت من تبليغ رسالة ، ربك وما يعملونه هم من كفر وإعراض ، بل هو عالم به ، محيط بتفاصيله ، فيرفع شأنك يامحمد ويعلى قدرك فى الدنيا والآخرة ويعاقبهم فيهما بما يستحقون من تعذيب وحرمان .

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٦٠ (٢) سورة الملك ، من الآية : ١٥

سوره يوسف عليه السلام

وهى مكية ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وذكرت بعد هود لما يجمع بينهما من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء السابقين وما لاقوا من أذى الأباعد كقصص سورة هود وأذى الأقارب كقصة يوسف عليه السلام .

وتمتاز سورة يوسف بأنها تناولت قصته كاملة من أولها إلى نهايتها ، حيث شرحت أمره مع أبيه ومع إخوته فى صغره وشبابه وكهولته فى فقره وفى غناه . وبينت كيف تآمر عليه إخوته ، حتى ألقوه فى غيابة الجب ، وكيف التقطه بعض المسافرين وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وأنه تربى فى بيت عزيز مصر . ونشأ فيه نشأة عبد مملوك ، وأن جماله فى شبابه أغرى به زوجته فراودته عن نفسه فاستعصم ، فكادت له عنده ، ودفع به كيدها إلى السجن وعاش فيه بضع سنين ، وكان معه فتيان ، وفى ليلة رأيا فى المنام رؤيا ، وسألاه عن تعبيرها ، فقال فى تعبيرها : « أَمَّا أحدكما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » ، وتحقق تأويله لرؤياهما فقتل أحد السجينين وصلب ، وعفى عن السجين الثانى ، وأصبح ساقيا لملك مصر ، ولما رأى الملك رؤيا أزعجته وفشل الكهنة فى تأويلها ، علم من ساقيه مكانة يوسف فى تعبير الرؤيا ، فاستدعاه فعبرها تعبيرًا عرف منه الملك منزلته من العلم ، وبرأته زوجة العزيز مما نسبته إليه ظلما وجعله الملك على خزائن الأرض

ثم بينت القحط الذى أصاب الناس وبينت كيف كان هذا سببا فى حضور إخوته ليتزودوا من الطعام الذى خزنه يوسف ليكون قوتا للناس فى سبع سنين عجاف ، وكيف خزنه حتى سلم من الآفات هذه المدة ، وكيف عاد إليه أبواه وإخوته ، ثم رفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، إلى غير ذلك من غرائب هذه القصة التى تعتبر عبرا وعظات ينبغى أن ينتفع بها كل ذى عقل رشيد .

وقد بدئت السورة بثلاث آيات فى بيان أحسن القصص ، ثم جيء عقبها بقصة يوسف كاملة ، وختمت بإحدى عشرة آية توضح أهداف القصة والحكم المستفادة منها ، ودلالتها الواضحة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومما يلاحظ فى هذه السورة الكريمة أنها تصور الفضائل فى أسمى صورها مثل : صبر يعقوب على فراق يوسف ثم فراق أخيه ، وصبر يوسف على ما قاساه من تعرض للهلاك بعد الأمان فى حضن أبويه ، وما عاناه من عبودية بعد الحرية ، وما تعرض له من ظلم فى غيابة السجن دون ذنب جناه .

ومن الفضائل الكبرى فى القصة : العفة فى أسمى صورها فى يوسف عليه السلام ، مع وفرة عوامل الإغراء والإغواء فى شرخ الشباب ، ومن الفضائل الكبرى التى أبرزتها أيضا الثقة بالله وآثارها فإن يعقوب لم يفقد ثقته به ، ولم يقنط من رحمته ، ويوسف لم ييئس ـ وهو فى قرارة السجن ـ من الفرج ، وظل ثابت الإيمان يدعو إلى الله ويعتصم بتقواه ، حتى بدل الله حالهما إلى أحسن حال

كما أبرزت القصة فضيلة العفو والصفح الجميل الصادر من يوسف لإخوته والاستغفار من يعقوب لأبنائه ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .

وكما صورت القصة الفضائل فى أسمى صورها صورت أيضا الرذائل فى أبشع مظاهرها حيث صورت حقد إخوة يوسف عليه ، وارتكابهم ماآذى أباهم أشد الإيذاء ، وما عرض أخاهم للهلاك ، كما صورت استهتار زوجة العزيز وإصرارها كل الإصرار على الخيانة الزوجية وإنها لم تكترث بسوء القالة فى حقها ، ولما لم يستجب يوسف لرغبتها ، أغرت به زوجها العزيز وحرضته على إلقائه فى السجن ظلما وعدوانا

وقد بينت سورة يوسف كما بينت سورة هود أن العاقبة للمتقين ، كما بينت أن مع العسر يسراً وأن لكل شدة نهاية ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾)

التفسير

١ ـ (الٓر) : أسماءُ حروف بدأ الله عز وجل بها بعض سور[1] كتابه الكريم إشارة إلى أنه مكون من كلمات ذات حروف عربية كتلك التى يتألف منها كلام معارضيه ـ تحديا لهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فى دعواهم أن الرسول تقوله ، فإذا عجزوا فمحمد مثلهم لايقدر على مثله ، فيجب الإيمان حينئذ بأنه من عند الله أنزله تأييداً لرسوله .

وقيل هى سرٌّ بين الله عز وجل وبين رسوله أوحى الله به إليه عليه الصلاة والسلام ولا يلزم علم جميع الأنام بما يوحيه الله عز وجل لأنبيائه ، فهم قد علموا من الأسرار القدسية مالاتستطيع وعيه العقول البشرية العادية ، روى عن أبى بكر : لكل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور . وقدتحدثنا عن هذه الفواتح فى أول سورة البقرة وآل عمران وغيرهما مما تقدم .

---

(١) السور المبدوءة بالحروف المفردة تسع وعشرون سوة وهى :

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) الأعراف (٤) يونس (٥) هود (٦) يوسف (٧) الرعد (٨) إبراهيم (٩)الحجر (١٠) مريم (١١) طه (١٢) الشعراء (١٣) النمل (١٤)القصص (١٥) العنكبوت(١٦) الروم (١٧) لقمان (١٨) السجدة (١٩) يس (٢٠) ص (٢١) غافر (٢٢) فصلت (٢٣) الشورى (٢٤) الزخرف (٢٥) الدخان (٢٦) (الجاثية) (٢٧) الأحقاف (٢٨) ق (٢٩) القلم .

(تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) : الإشارة إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب القرآن عامة والمبين من أبان اللازم بمعنى بان وظهر، أى الظاهر أمره فى كونه حقا من عند الله ، أو الواضح فى معانيه وأغراضه .

أو هو من أبان غيره أى أظهره ، فهو يظهر حقائق الدين ومصالح الدنيا لمن تلاه وتدبر ما فيه . قال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ». ولا مانع من أن يكون المعنى عاما يشمل كل ذلك فيكون ظاهراً فى نفسه مظهرًا لغيره من الحقائق .

والمعنى : تلك الآيات الواردة فى هذه السورة آيات من الكتاب الواضح فى كونه من عند الله ، الظاهر فى معانيه وأغراضه ، الموضح لحقائق الدين الحق ، ومصالح الدنيا والآخرة .

ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى من بعد منزلته ورفعة بيانه وحسن إبانته عقب ذلك بما يدل على الشرف الإضافى فقال :

٢ ـ (إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على محمد قرآنا عربيا لتستطيعوا قراءته وتعقله وفهمه أيها العرب ، وتكونوا دعاة لشرائعه فى الأمة العربية وغيرها .

٣ ـ (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) :

آيات القرآن الكريم معجزة فى جميع صورها ، سواءٌ أوردت فى صيغة خطابية أم جدلية أم قصصية ، والقصص التربوى بصفة عامة يعطينا صوراً واضحة للفضائل والرذائل ، حتى تترك آثارها العميقة فى أغوار النفوس البشرية فتقبل على الفضائل لحسن عاقبتها ، وتدبر عن الرذائل لقبح مصيرها .

وقد ساق الله القصص القرآنية ، لنستفيد من روايتها مكارم الأخلاق ونتعظ بعظاتها وعبرها ، حتى نكون بمأمن من عثرات الحياة ومنجاة من أخطار الدنيا والآخرة ، وسورة يوسف مليئة بالعظات والعبر ، فلهذا تعتبر بحق أحسن القصص كما وصفها الله تعالى .

ومعنى هذه الآية ما يلى : نحن نروى لك يا محمد أحسن القصص الواقعى النافع فى شتى نواحى الحياة ، وإن كنت من قبل إيحائه إليك ، لمن الغافلين عن هذه القصة ، فلم تخطر لك ببال ، ولم يسبق لك بها علم .

قال القرطبى فى بيان كون سورة يوسف أحسن القصص : مسألة اختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص، فقيل لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيانه قوله فى آخرها : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ». وقيل سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم ، وعفوه – بعد التقائهم – عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه فى العفو عنهم حتى قال : «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ». وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين ، والجن والإنس ، والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقة والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وَجُمَل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا .

ثم ذكر عن بعض أهل المعانى أنه قال : إنما كانت أحسن القصص ، لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز – قيل – وللملك أيضا ، فقد أسلم وآمن بيوسف، وكذا مستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير . ا هـ .

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ (٤) قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦))

المفـردات :

(يَاأَبَتِ) : بمعنى ياأبى ، والتاء عوض عن ياء المتكلم .

(يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) : يختارك ويصطفيك (تَأْوِيلِ الأَحاديث) : تفسير الأحلام وبيان ما تؤول إليه .

(أَبَوَيْكَ) : المراد بهما الجدان إبراهيم وإسحق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأطلق عليهما أبوان لأن الجد أب لغة وعرفا وشرعا حيث يرث ميراثه عند فقده .

التفسير

٤ ـ (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُم لِى سَاجِدِين) :

هذه الآية الكريمة بداية للحديث عن قصه يوسف التى وصفها الله بأنها أحسن القصص ووعد بأنه سيقصها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : واذكر يامحمد لمن يعارضون فى نبوتك اذكر لهم قصة يوسف التى لاتعلمها أنت ولا قومك ، ليعلموا أنها من وحى الله وأنت صادق فى دعوى رسالتك ، اذكر

لهم حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام : ياأبى إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا من الكواكب السماوية ، والشمس والقمر ، رأيتها جميعا تركت مواقعها وسجدت لى . وكان إخوة يوسف عليه السلام أحد عشر فجاءت هذه الرؤيا مؤذنة بأنهم سيسجدون ليوسف مع والديه المشار إليهما بالشمس والقمر فالشمس رمز إلى أبيه ، والقمر رمز إلى أمه أو بالعكس ، وقد تحققت هذه الرؤيا تماما ، كما بينه قوله تعالى فى آخر السورة : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ... » (١) .

والرؤيا الصادقة فى النوم قد تكون من الله لأنبيائه فتكون وحيا ، وقد تكون إلهاما للصالحين ، قال صلى الله عليه وسلم : « الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِن الرجلِ الصَّالحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » أخرجه البخارى. وقال أيضا : «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبوةِ إلاَّ المُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا المُبَشِّرَاتُ يارسولَ اللهِ ؟ قال : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالحُ أَوْ تُرَى لَهُ » أخرجه البخارى. وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة خاصة بأهل الدين الحق ، فقد يراها غيرهم ويغلب على الظن ، أنها حينئذ لا تكون صريحة بل مؤولة ، كتلك التى رآها ملك مصر الوثنى ، وهى رؤيته سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، وقد أولها يوسف عليه السلام بسبع سنوات خصبة تأتى بعدها مثلها جدباء .

وأحيانا يستدل بها على أمراض معينة ، ولهذا كان أطباء اليونان يعتمدون عليها فى تشخيص المرض عند المريض ، وكان بعض قواد الرومان يعتمدون على رؤاهم فى وضع خططهم الحربية ، لأن لديهم تجارب صحيحة فى تأويلها : انظر مادة الرؤيا فى دائرة المعارف للأستاذ محمد فريد وجدى وأحيانا تكون الرؤيا أخلاطا متباينة وهى المعبر عنها بأضغاث الأحلام وتلك هى التى لا يعرف المعبرون تأويلها لخروجها عن القواعد التى ألفوها فى تعبير الرؤى ــ والله تعالى أعلم .

(١) سورة يوسف من الآية : ١٠٠

وقد استفيد من هذه الآية وما بعدها ما يأتى :

أولا : أن إخوة يوسف كانوا يعرفون تأويل الرؤى ، ولذا حذره أبوه من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له بسبب ما يفهمونه من المعانى التى تشير إليها ، وهى السمو والرفعة ، وأن تكون أسرته مرءوسة له وهو رئيسهم ، إلى غير ذلك من ألوان العز المنتظرة له .

ثانيا : أن تعبير الرؤيا أمر يقره الشرع ولا ينهى عنه وأنه حقيقة علمية يمكن الانتفاع بها ، فقد أشار والده إلى مآل رؤياه وتعبيرها ، إشارة غير خفية ، إذ أفهمه أن إخوته إذا سمعوها أولوها برفعة له مستقبلا وأنهم لذلك سوف يكيدون له ، كما دلت الآية الثانية على أنه تعالى سيعلم يوسف من تأويل الأحاديث أى تعبيرها ، وأن ذلك من تمام النعمة عليه .

وقد جاء فى فضل الرؤيا الصادقة قوله صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَبْقَ بَعْدِى مِنَ المُبَشِّرَاتِ إلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ الصَّادِقَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالحُ أَوْ تُرَى لَهُ » .

وقال : « الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » . والحديثان صحيحان وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة دائما ، فقد وقعت من بعض الكفار وممن لا يرضى دينه ، كرؤيا ملك مصر الوثنى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، ورؤيا السجينين الوثنيين فى السجن ، وسيأتى فى هذه السورة بيان تلك الرؤى وتأويلها ، ورؤيا بختنصر التى فسرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان وقوعها من هؤلاء وأمثالهم على سبيل الندرة والقلة[1] .

كما أنه ليس بلازم أن يكون الإخبار بالغيب ناشئا عن نبوة ، فقد يخبر الكاهن بخبر غيبى فيصدق، بممارسة بعض أنواع الرياضات الروحية . أو استخدام الشياطين الذين يسترقون السمع من الملأ الأعلى ، ويفلتون من الشهب الراصدة التى يقذفون منها من كل جانب .

---

(١) انظر القرطبى فى المسألة الرابعة من تعليقه على قوله تعالى: «قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك . . . » الآية .

ثالثا : أفاد قوله تعالى : « قَالَ يَابُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » أنها لا تقص على غير شقيق ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ، قيل لمالك : أيعبر الرؤيا كلُّ أحد ؟ فقال أبالنُّبوَّة يلعب ؟

وقال أيضا : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ، قيل فهل يعبرها على الخير وهى على المكروه ، لقول من قال : إنها على ما تأولت عليه فقال : لا. ثم قال : الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

رابعا : أفادت أيضا أن للمسلم أن يحذر المسلم ممن يخافه عليه ولو مسلما أو ابنا ولا يكون بذلك داخلا فى إثم الغيبة ، لأن يعقوب قد حذر ابنه يوسف من أولاده الآخرين من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له ، كما أنه يستفاد ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « اسْتَعِينُوا عَلَى إنجاحِ حَوَائِجِكُم بالكِتْمانِ فإنَّ كُلَّ ذِى نِعْمةٍ مَحْسُودٌ » .

٥ ـ (قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) :

لما سمع يعقوب من يوسف رؤياه ، أدرك أنها إلهام من الله وبشرى بأن يوسف ينتظره مستقبل سعيد يجعله رئيسا كبيرا ، وأن أسرته جميعا ستكون فى جملة من يعظمه كما أدرك أن إخوته إن علموا برؤياه هذه يكيدون له ويدبرون المكايد حسدا له ، كما حدث من قابيل مع أخيه هابيل ، حيث قتله من أجل امرأة ، وأحدث بذلك أول جريمة بشرية على الأرض ، ولهذا أوصى ابنه يوسف قائلا : يابنى لا تخبر إخوتك برؤياك التى تشير إلى رفعتك عليهم ، فيحرضهم الشيطان عليك ، فيكيدوا لك كيدا شديدا ، إن الشيطان للإنسان عدو بين العداوة ، واضح الكراهية ، حريص على إشعال النار بين أفراده ، أقارب كانوا أو أباعد ، تنفيذًا لوعيده لآدم :

« لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً »

٦ ـ (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ....) :

المراد بالتشبيه فى قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ) بيان المماثلة بين الصورة المرئية فى عالم المثال ـ وهى التى حدثت فى المنام ـ وبين الذى سيقع فى عالم الشهادة والواقع .

والمعنى : ومثل هذا الاجتباء والاصطفاء العظيم الذى شاهدته فى عالم المثال والنوم ، حيث بدا لك يايوسف أنه تعالى سخر لك تلك النيرات العلوية فخضعت لك ، مثل هذا الاجتباء وعلى سنته يسخر لك الله وجوه الناس ونواصيهم ـ ومنهم أهلك ـ مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ، ويصطفيك ربك لجنابه على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة . فيجعلك رسولاً وملكا على عرش مصر دون سواك ، ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة والواقع ، حسبما عاينته مناما من غير قصور .

(وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

المراد من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى ، فإن الرؤى أحاديث الملك إن كانت صادقة واضحة ، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن كانت غير ذلك .

وكما بشر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام ـ بأنه تعالى سيصطفيه للرسالة والملك ، بشره أيضا بأنه سبحانه سيعلمه من تأويل الأحلام ، مشيرا بذلك إلى السبيل الذى سيسلكه حتى يصل إلى العز الدنيوى المدخر له ، فإنه وصل إليه عن طريق تعبير الرؤيا لصاحبى السجن ، ثم رؤيا الملك ، وهذا العز الذى سيؤول أمر رؤياه إليه ، هو بعض ما عبر عنه بإتمام النعمة فى قوله تعالى :

(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) :

فإنه شامل لعز النبوة والملك ، والمراد من آل يعقوب بنوه ، وحفدته ، وإتمام النعمة بهذه الرؤيا على آل يعقوب لأنها مؤذنة بأنهم سيكونون كواكب يهتدى بأنوارهم ، حيث خرج من ذريتهم الأنبياء كما أنهم سوف ينالون من عز يوسف وجاهه وماله حيث سجدوا له وخضعوا لسلطانه ، وكل ذلك سيحدث ويتم به الله نعمته عليك يايوسف وعلى آل يعقوب .

(كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) :

إسحق جد يوسف الأول وإبراهيم جده الثانى ، وإطلاق لفظ الأب عليهما لغة وعرفا وشرعا لأن الجد أب ، وإتمام النعمة على إبراهيم باتخاذه خليلا وإنجائه من النار ومن ذبح ولده ، وإتمامها على إسحق بنبوته ونبوة ولده يعقوب ، وجعل الأنبياء فى ذرية ولده يعقوب. واعلم أنه لا يجب فى التشبيه أن يطابق المشبه المشبه به من كل وجه فيكفى فيه وجود بعض الصفات مشتركة بينهما .

(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

هذه الجملة مستأنفة لتحقيق مضمون الجمل المذكورة ، أى يفعل ما ذكر لأنه محيط العلم بكل شيء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من النعم ، حكيم فيما يقدره ويشاؤه ، فيكون دائمًا موافقا للصواب مجانبًا للخطأ .

(* لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(عُصْبَةٌ) : أى جماعة ، وتطلق لغة على الجماعة من الرجال عشرة فصاعدًا ، أطلق عليهم ذلك ، لأن الأمور تعصب بهم [1] أى تشتد بهم وتقوى .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : خطأ بين واضح ، وأصل الضلال البعد عن الطريق الموصل إلى الغاية .

(١) أنظر البيضاوى .

التفسير

٧ـ (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ) :

بينت الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام أخبر أباه برؤياه وأن والده أولها برفعة شأنه فى مستقبل حياته ، فلهذا أوصاه أن لايقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدًا ، لأن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وجاءت هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة لتحدثنا عن كيد إخوته له ، لما رأوه من حب أبيه له أكثر من حبه لهم ، ولتذكر لنا ما آل إليه أمر يوسف من علو الشأن وسمو المنزلة تحقيقًا لرؤياه ، وما تخلل ذلك من أحداث عظام ، وآيات تلك السورة مترابطة ترابطًا مسلسلا وثيقًا ، انفردت به عما سواها من سائر السور ، لأنها تضمنت قصة واحدة متتابعة الحلقات .

والمقصود من إخوة يوسف إما جميعهم ، ويدخل فيهم شقيقه بنيامين الذى احتجزه يوسف فى مقابل صواع الملك ــ كما سيأتى الحديث عن قصته وَإمَّا إخوته لأبيه الذين كادوا له فلم يفلحوا ، ورفعه الله مكانًا عليا ، وعلى أى الوجهين ففيهم جميعًا آيات للسائلين .

والمقصود من السائلين إما كل من سأل عن قصتهم وعرفها ، وإما المشركون واليهود خاصة : فقد سألوا الرسول عنها امتحانًا له ، وإما الطالبون للآيات والعبر ليتعظوا بها ، لصفاء نفوسهم ، دون غيرهم .

وإليك المعانى وفقًا لهذه الاحتمالات كما يلى :

المعنى الأول : لقد كان فى قصة يوسف وإخوته جميعًا علامات عظيمة الشأن على قدرة الله تعالى الباهرة لكل من سأل عن قصتهم وعرفها ، فإنها تدل على أنه تعالى لا يصلح عمل المفسدين ، وأنه وحده هو الذى ينجى من أحاطت به أسباب التهلكة ، ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحقق الأمل بعد اليأس .

المعنى الثانى : لقد كان فى قصة يوسف وإخوته علامات واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لمن سأله عنها من المشركين واليهود ، حيث أخبرهم بها على ما هى عليه من غير

سماع من أحد ولاقراءة فى كتب ،وهذا قاطع بأن الذى نبأه بها هو العليم الحكيم. تأييدًا لرسالته ودليلا على صحتها .

المعنى الثالث : لقد كان فى أحداث قصة يوسف وإخوته علامات واضحات لطالبى العبرة الذين يتعظون بآيات الله تعالى ، فتخبت لها قلوبهم ، وتنصرف بها إلى مرضاة الله نفوسهم ، فهى تحرك القلوب الراكدة وتنبه النفوس النائمة ، إلى أن الملك لله ، لايجرى فيه حدث إلا بمشيئته ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، ولا يستطيع أحد أن يضع من رفعه الله ، إلى غير ذلك من العظات .

٨ـ (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

اذكر أيها السائل عن قصتهم حين قال بعضهم لبعض : والله ليوسف وأخوه الشقيق (بنيامين) أحب إلى أبينا منا مع أننا جماعة قوية يشتد بنا ساعده ، فما باله يحبهما أكثر من حبه لنا ، ويؤثر القلة على الكثرة ؟ إن أبانا فى ترجيحهما فى المحبة علينا لفى بعد عن طريق العدل بين واضح ، وخطأ فى الرأى جلى بعد به عن الصواب ، وفاتهم أن الفضل فى الرجال ليس بالكثرة بل بسمو الروح ، وصفاء النفس وغلبة الخير ، وكل ذلك كان فى يوسف وشقيقه بنيامين وقد اجتمع إلى ذلك ما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام من الجاه العظيم والعز الرفيع الذى ينتظره عند الله والناس . فكان ذلك كله باعثا على أن يؤثرهما يعقوب عليه السلام بمزيد من الحب ، أكثر من بقية إخوتهما ، فحقدوا عليهما وتآمروا على يوسف ليخلوا لهم وجه أبيهم حيث إنهم يرونه السبب الأول فى عدم اهتمامه بهم دون بنيامين ، فلذا أفردوا يوسف بالتآمر على قتله ، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله :

٩ ـ (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

أى وقال بعضهم لبعض أيضًا : اقتلوا يوسف بأى وجه من وجوه القتل أو ألقوه فى أرض مجهولة بعيدة عن بلادنا بحيث لايستطيع الرجوع ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود مع السلامة من إثمه ، فإن فعلتم واحدًا منهما .

(يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) : ويفرغ لكم فلا ينازعكم فيه أحد .

وخلو وجهه لهم كناية عن إقباله عليهم بوجهه وإيثارهم بحبه حيث لا ينازعهم فى ذلك أحد .

(وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

المراد من صلاحهم صلاح أمرهم مع أبيهم ، وانتظام شئون دنياهم .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو ابعدوه عن أرضنا بحيث لا يستطيع الرجوع إليها ، يفرغ لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعد التخلص منه قومًا صالحين مع أبيكم ، بأن يكون أكثر حبًّا لكم وإقبالًا عليكم ، وأن تنتظم معه شئون دنياكم فيكثر من بركم وإغداق الخير عليكم ، بعد يأسه من عودة يوسف ، وخفاء أمره عليه .

وفسر الكلبى صلاحهم بتوبتهم إلى الله تعالى مما فعلوه بيوسف . ويبعده أن المتآمر على قتل أخيه لايعقل أنه يفكر حين تآمره فى مرضاة الله كما أنه لايظن أن مثل هؤلاء يفكرون فى صلاح أمرهم بالتوبة إلى الله ، وهم يعلمون أن شرائع الله تعالى أجمعت على الحكم الذى جاء فى سورة النساء ، بقوله تعالى : « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا »[1] فهو من الأحكام التى لاتختلف فيها الشرائع ، وقد نشأوا فى بيت النبوة فلا يخفى هذا الحكم عليهم ، فالصواب أن الصلاح الذى أرادوه هو صلاح دنياهم ، وهو الذى دعاهم إلى التفكير فى التخلص من يوسف . فهم طلاب دنيا وليسوا أهل تقوى .

(قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾)

المفـردات :

(غَيَابَةِ الْجُبِّ) : الجب البئر قبل أن يبنى محيطها . وأطلقه بعض اللغويين على البئر مطلقًا ، وغيابة الجب : قاعه ، وفسره الهروى بكهف أو طاقٍ فيه فوق الماء ، وأطلق عليه غيابة لأنه يغيّب مافيه عن العيون . (السَّيَّارَةِ) : الجماعة التى تسير .

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٣

التفسير

١٠ - (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) :

لايزال مجلس التآمر منعقدًا ، ولكنه لم يخل من وجود داع من دواعى الخير فى قلوب بعض الإخوة ، إذ أراد صرفهم عن الجريمة البشعة إلى ما يحقق غرضهم من الإبعاد ، ولكنه يبقى على حياة أخ صغير لاحول له ولا قوة ولابد أن الجب الذى اقترح إلقاء أخيه فيه كان معروفًا لهم وكان ضحل الماء حيث يبقى على حياة أخيه يوسف حتى يلتقطه بعض السيارة ، فلذا قال لهم : ألقوه فى غيابة الجب ولم يقل ألقوه فى غيابة جب[1] .

ويلاحظ أن ماقاله الهروى من أن غيابة الجب كهف فيه لايناسب هنا ، فإن إلقاءه من أعلى الجب يوصله إلى قاعه لا إلى كهف فيه فوق الماء كما قال ، وخاض بعض المفسرين فى تعيين صاحب هذا الاقتراح ، فالسّدى يقول هو (يهوذا) وقتادة وابن إسحاق يقولان هو زابيل ، ومجاهد يقول هو شمعون ، إلى غير ذلك ولم نجد سندًا لواحد من هؤلاء المفسرين ، فلذا لانستطيع تعيينه ، وإنما لم يذكر واحد منهم باسمه فى الآية سترًا على المسىء ، وكل واحد منهم لم يخل من الإساءة ، ولكن مراتبها تتفاوت .

والمعنى : قال قائل منهم عز عليه قتل أخيه بلا ذنب جناه ، لاتقتلوا يوسف قتلا مباشرًا - ولا تطرحوه فى أرض يتعرض فيها للموت ، ولكن ألقوه فى قاع البئر المعروفة لنا بقلة مائها ، فإن فعلتم ذلك يلتقطه حيًّا بعض الجماعات السيارة فى الصحراء حين يدلون بدلائهم فيها ليستقوا منها ، فيتعلق بها فيبعدوه عن بلادنا إلى حيث يجد رزقه ويبقى حيًّا .

(إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) :

أى إن كنتم مصرين على إبعاده عن أبيه ليخلو لكم وجهه ، فاعملوا بمشورتى ، ليتحقق لكم مرادكم ، ويبقى أخونا حيًّا فلا نأثم بقتله .

---

(١) نقل القرطبى عن وهب بن منبه أن هذا الجب كان على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام والله أعلم .

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(يرْتَع) : أصل الرتع أن تأكل وتشرب ما تشاءُ فى خصب وسعة ، وذكر الراغب أنه حقيقة فى أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أُريد به الأكل الكثير ا هـ .

والمراد به هنا نشاطه فى الأكل المستتبع لحسن نموه ، ولذا قرنوه باللعب ، فإنه يساعد على ذلك .

(لَيَحْزُنُنِى) : بفتح الياء وقرئ بضمها . وكلاهما بمعنى يجعلنى حزيناً .

التفسير

١١ - (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) :

بعد أن وافق إخوة يوسف على ما عرضه عليهم أحدهم بإلقاء يوسف فى غيابة الجب - بعد أن وافقوه على ذلك أخذوا فى أسباب تنفيذه ، ومهدوا لذلك بطلبهم من أبيهم أن يوافق على خروجه معهم ، إذ قالوا له استدرارًا لعطفه ، واستجلابًا لقبوله ، وبثًّا للثقة فى قلبه : يا أبانا أى شيء يجعلك لاتأمنا على أخينا يوسف . وأنت أب لنا جميعًا ونحن إخوة شركاء فى الانتساب إليك بالبنوة ، وإنا جميعًا له لمخلصون نريد له الخير ونشفق عليه ، يريدون بذلك استنزاله عن رأيه فى حفظه منهم وتخوفه عليه

من كيدهم لما بدا له من حسدهم ليوسف.وتعبيرهم بقولهم لأبيهم :(يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) الآية تؤذن بأنهم طلبوا قبل ذلك من أبيهم أن يخرج يوسف معهم ، فلم يوافق على ما طلبوه ، فقالوا هذه العبارة متعجبين من رفضه لطلبهم ، مع أنه أبوهم جميعًا وهم جميعًا أبناؤه ، وأنهم يريدون الخير ليوسف ويشفقون عليه ، ويؤكدون ذلك بما تضمنته جملة :(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) من المؤكدات المختلفة[1] ، ولم يتركوا أباهم يفكر فيما عرضوه عليه وأشفقوا من أن لايجيبهم إلى ما طلبوه فلاحقوه بما يسد عليه باب الرفض،وذلك قولهم له فيما حكاه الله عنهم .

١٢ - (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

يريدون بذلك المقال أن يسدوا عليه باب التفكير فى رفض طلبهم ، حيث حددوا له فيه اليوم التالى لذهابه معهم ، وطلبوا ذلك منه طلب الواثق من الإجابة ، وعيَّنوا له الغرض الذى طلبوه من أجله ، وهو أن يرتع ويلعب معهم ، وكلاهما يحبه الأب لأطفاله ، ويحبه الأطفال لأنفسهم وأكَّدوا أنهم جميعًا له حافظون .

والمعنى أرسل معنا يوسف فى رحلة رياضية ، يأكل ما يشتهى فيها ، حيث يطيب الطعام فى الرحلة ، ويلعب ما يشاء من ألوان اللعب النافع لبدنه وروحه ، كالاستباق والاصطياد وألعاب الفروسية ، (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وما نظن أنك تخيب رجاءنا أو تشك فينا بعد الذى شرحناه لك .

فلما انتهوا من التماسهم أجابهم أبوهم بما حكاه الله بقوله سبحانه :

١٣ - (قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) :

طوى يعقوب فى نفسه ما يشعر به من كيدهم ليوسف، وقال معتذرًا مشفقًا عليه : إنى ليحزننى ويؤلمنى أن تذهبوا به ويكون بعيدًا عنى لشدة شفقتى عليه ، وقلة صبرى عنه ، وأخافُ أن يأكله الذئبُ ، وأنتم عنه غافلون .

---

(١) وهى «إن» و«اللام» فى قوله : « لناصحون » وتقديم لفظ «له» على «ناصحون» وكون الجملة اسمية .

ولم يصرح لهم بما يراه من سبب غفلتهم حتى لايتهمهم صراحة بالتقصير فى شأنه ، وقلة مبالاتهم به ، بل تركهم يحملونه على نحو اشتغالهم عنه بما خرجوا من أجله ، وهو الرتع واللعب ، فأجابوه بما يفيد أنهم لن يغفلوا عنه ، ولن يشغلهم عن حفظه ما سيكونون فيه من الرتع واللعب ، لكى يطمئن عليه ويرسله معهم ، وقد حكى الله ذلك بقوله :

١٤ - (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ) .

أى قالوا لأبيهم ليطمئنوه على يوسف إن خرج معهم: والله لئن أكله الذئب وهو معنا فى هذه الرحلة ونحن جماعة محيطون به يشد بعضنا بعضا ، لئن أكله الذئب ونحن كذلك إنا حينئذ لخاسرون سمعتنا وكرامتنا بين قومنا ، ونحن لانقبل على أنفسنا هذا الهوان .

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(أَجْمَعُوا) : أى عزموا - يقال : أجمع الأمر وعليه أى عزم فيه .

التفسير

١٥ - (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ...) الآية .

تقدّم بيان أن إخوة يوسف من أبيه تشاوروا فيما بينهم فى الطريقة التى يتخلصون بها من يوسف عليه السلام ، لأنه يستحوذ على معظم حب أبيه يعقوب ، وهم يريدونه لهم وحدهم ، وأنهم لذلك طرحوا اقتراحين لاختيار أحدهما ، (أولهما) أن يقتلوه قتلا مباشرا ، (وثانيهما) أن يلقوه فى مكان بعيد يصعب عليه فيه العودة إلى أبيه .

وذكرنا أن أحدهم نهاهم عن قتله ، واقترح عليهم أن يلقوه فى غيابة الجب ، وأنهم وافقوا على اقتراحه هذا وأخذوا فى تنفيذه ، فبدأوا يعتبون على أبيهم أنه لا يأمنهم على يوسف مع أنهم له ناصحون ، وطلبوا منه أن يرسله معهم إلى مراعيهم التى بها مواشيهم ،

حيث يرتع ويلعب - أى يتسع فى الطعام فيأكل ما يشاء ، ويلهو معهم ، وتعهدوا بأنهم له حافظون ، ولما أظهر لهم خوفه من إهمالهم له ، حتى يأكله الذئب وهم عنه غافلون أكدوا له أنهم سيحرسونه فهم عصبة وجماعة قوية ، فلن يستطيع أن يأكله منهم ، وأنه لو أكله منهم وهم كذلك خسروا سمعتهم وكرامتهم بين الناس ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا أخاهم وهم عصبة ، فوافقهم على ذهابه معهم ، بعد كل هذه التوكيدات منهم .

وقد بينت هذه الآية ، أنهم نكثوا عهدهم مع أبيهم وفيما يلى معناها :

فلما ذهب إخوة يوسف به من عند أبيهم بعد ما زعموا له أنهم ليوسف ناصحون حافظون ، وقد أجمعوا فى قرارة نفوسهم أن يلقوه فى الجب الذى يجعله غائبا عن أعين طالبيه - فلما ذهبوا به وهم على هذا الإجماع . نفذوا ما أجمعوا أمرهم عليه ، وألقوه فى غيابة الجب ، وخانوا أباهم ونكثوا معه عهدهم ، وأوحى الله إلى يوسف عليه السلام ، وهو فى محنته هذه ، تبشيرا له بما يؤول أمره إليه ، وإيناسا له وإزالة لوحشته ، لتتخلصن مما أنت فيه يا يوسف من سوء الحال وضيق المجال ، ولتخبرن إخوتك بما فعلوه بك ، وهم لا يشعرون - وأنت تخبرهم - بأنك أنت يوسف الذى ألقوه فى غيابة الجب ، لأنك تحدثهم وأنت فى حال رفيعة المقدار جليلة الهيبة ، حيث تكون على أريكة الملك وهم فى ذلة الحاجة إليك ، وذلك ما سيحكيه الله مجملا بقوله فى هذه السورة : « قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ »

والمؤرخون يتحدثون عما فعله إخوته معه قبل إلقائه فى الجب من شتم ولطم وضرب حتى أوشكوا أن يقتلوه ، وأن قلوبهم لم ترق لاستغاثته بكل واحد منهم وبكائه من شدة قسوتهم ، بل نزعوا قميصه ، ليلطخوه بالدم بعد عودتهم إلى أبيهم بدونه ، وجعل يطلبه منهم ليتوارى به فلم يكترثوا بطلبه ، ثم دلوه فى البئر حتى بلغ نصفها فتركوه ليقع فى البئر ،

وأنهم كانوا يقولون له شامتين ، ادع الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر التى سجدت لك لتؤنسك فى قاع هذا البئر ، إلى غير ذلك من التفاصيل البشعة .

وبما أن هذه التفاصيل لم نجد لها سندا ، فلهذا لا نستطيع الجزم بها وإن كنا لا نستبعدها ، فإن من أرادوا قتله ، لا يبعد عليهم أن يصنعوا ما هو دونه .

(وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(عِشَاءً) : أول الظلام ، وقيل من المغرب إلى ثلث الليل ويسمى العتمة .

(مَتَاعِنَا) : ما نتمتع به من الثياب والطعام ونحوهما .

(بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) : بمصدق لنا فيما نقوله .

(سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا) : أى سهلته لكم حتى ارتكبتموه .

التفسير

١٦ ، ١٧ ـ (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) :

وبعد ما اقترفوا جريمتهم بإلقاء يوسف فى غيابة البئر ، جاءوا أباهم ليلا يتصنعون البكاء ، وشرحوا له سبب بكائهم قائلين :

يا أبانا ذهبنا فى مرتعنا الذى كنا نرتع فيه ، ذهبنا نتسابق فى العدو والرمى ، وتركنا يوسف عند متاعنا وخصائصنا التى نتمتع بها من الثياب والأزواد وغيرهما حيث المكان أمين فى ظننا – فأكله الذئب فور تركنا يوسف، وقبل أن يمضى زمن يعتاد فيه التعهد والتفقد، فنحن لم نقصر بعدم وضعه فى مكان أمين . ولم نغفل عن مراقبته ، بل تركناه فى مأمننا ، ومجتمع أمتعتنا التى نحرص عليها ، وعلى مرأى منا ، وما فارقناه إلا زمناً يسيراً ، وبيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان .

ولما كانوا يعرفون أن إفكهم هذا لايصدقه أبوهم قالوا عقب ذلك :

(وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) :

أى وما أنت بمصدق لنا فيما قلناه ولو كنا عندك صادقين[1] لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيىء الظن بنا ، غير واثق بقولنا، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كلاماً كثيراً فى هذا اللقاء الذى حدث بينهم وبين أبيهم ، ومن ذلك أنه لما سمع بكاءهم قال : مابكم ؟ أجرى فى الغنم شىء ؟ قالوا : لا ، قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ فلما جاءوه به ألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه ، وقيل إنهم لما قالوا له أكله الذئب خر مغشياً عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، وروى أن يهوذا لما رأى ذلك قال : ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحَر ، إلى آخر ماقيل مما لم نجد له سنداً ، فلهذا لانستطيع القطع به .

---

(١) قال العلامة أبو السعود فى تعليقه على حرف (لو) فى قولهم « ولو كنا صادقين » قال : وكلمة (لو) فى أمثال هذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم إثباتا ونفيا فى جميع الأحوال ، بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ، ليكون سواها أولى بالحكم وقد تقدم الكلام على مثله فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » أهـ

ويستفاد من الآية أن بكاء المرء لايدل على صدق مقاله ، فما أكثر البكاء المصنوع ، ويستفاد منها أيضًا أن الاستباق مشروع .

قال ابن العربي : المسابقة شرعة فى الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ، وقد فعلها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ، فقال لها : « هذه بتلك » .

وقد أجمع المسلمون على أن السبق لايجوز على وجه الرهان إلا فى الخف والحافر والنصل ، قال الشافعي : ماعدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار اهـ .

والأصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا سَبْقَ إِلَّا فى نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ » .

وقد زاد أبو البخْتَرِى القاضى كلمة « أو جناح » فى روايته لهذا الحديث ، يريد بزيادتها إرضاء الرشيد حيث كان يتسابق بالحمام فكشف الرشيد وضعه ، وأقصاه من مجلسه وامتنع العلماء من كتابة حديثه ، ووصموه بالوضع وتعمد الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

١٨ – (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ..) :

أى وجاءوا بعد إخبارهم أباهم بأكل الذئب ليوسف ، جاءوا بقميصه ملوثًا بدم مزور مكذوب فى شأنه ، حيث زعموا أنه دم يوسف أثناء افتراس الذئب له ، يريدون أن يجعلوه برهانًا على صدقهم فيما زعموه من أكل الذئب له ، ولكنه لم يقتنع بأنَّ هذا الذى فوق القميص دم ولده يوسف وقال :

(... بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

أى ليس الأمر كما زعمتم من أكل الذئب له ، بل سهلت لكم أنفسكم الكارهة له أمرًا منكرًا فظيعًا نحوه لايعلمه إلا الله فصبر منى جميل ، لاتشوبه منى شكوى لغيره جل وعلا .

ولما كان الصبر الجميل الذى ألزم نفسه به ، لايقوى عليه وهو رازح تحت خطبه الجسيم ، فلهذا استعان عليه بربه قائلًا :

(وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) :

أى والله هو المطلوب منه العون لى على احتمال ما تقولونه فى شأن يوسف كذبًا .

واعلم أن الوصف فى اللغة ذكر الشىء بنعته ، وهو قد يكون صدقًا ، وقد يكون كذبًا ، والمراد به هنا الثانى ، كما فى قوله تعالى : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ »[1] .

قال الآلوسى : بل قيل إن الصيغة غلبت فى ذلك ونحن نقول : إن من هذا الاستعمال قوله تعالى : « وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ »[2] .

روى ابن عباس وغيره أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقًا ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم وقال لهم : متى كان الذئب حكيمًا ، يأكل يوسف ولا يخرق القميص ؟

وروى عنه أيضًا أنه قال : كان الدم دم سخلة[3] ، وأن يعقوب لما نظر إلى القميص قال : كذبتم ، لو كان الذئب أكله لخرق القميص .

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(سَيَّارَةٌ) : جماعة تسير . (وَارِدَهُمْ) : الوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى منه ، والضمير فى : (وَارِدَهُمْ) يعود على السيارة بحسب المعنى ، أى وارد القوم الذين يسيرون ، ولو رجع إلى السيارة بحسب اللفظ لقيل : واردها ، وكلاهما جائز لغة .

---

(١) الصافات الآية : ١٨٠ (٢) النحل من الآية : ٦٢

(٣) السخلة : ولد الشاة .

(فَأَدْلَى دَلْوَهُ) : أى أرسلها إلى الجب ليملأها ، وأما دلاها فمعناهُ جذبها ليخرجها . ذكره القاموس ، وحكاه القرطبي عن الأصمعي وغيره .

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :وأخفوه متاعًا للتجارة ، وسمى مال التجارة بضاعة ،لأنه بضعة من المال العام — أى قطعة منه .

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) :أى باعوه بثمن مبخوس — أى منقوص من بخسه إذا نقصه .

(دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) : أى دراهم قليلة . ومن هذا المعنى قوله تعالى فى شأن قلة أيام الصيام « أَيَّامًا مَعْدُودَات » . (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) : أى من الذين لايرغبون فيما بأيديهم .

التفسير

١٩ — (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) :

أى وبعد إلقاء يوسف فى البئر وعودة إخوته إلى أبيهم جاءت جماعة من المسافرين إلى مصر ، ونزلوا قريبًا من هذه البئر التى أُلقى فيها يوسف . فأرسلوا الذى يرد الماء لهم عادة ، ليستقى لهم من هذه البئر . فأرسل دلوه وأنزلها فى البئر ليملأها ماء : وأمسك بحبلها ليجذبها به ، فتعلق يوسف بالحبل ، فثقلت الدلو على الوارد . فأعانه على جذبها مساعدوه من الرفقة الذين جاءوا معه ليستقوا لقومهم .

(قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) :

قال هذا الوارد الذى يستقى للجماعة السيارة مستبشرا فرحا ، يابشرى هذا غلام كأنه نادى البشرى ، وقال لها أقبلى فهذا أوانك ؛ حيث فاز بنعمة خرجت له فجأة من حيث لا يحتسب .

وظاهر الآية أنه قال : (يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) قبل أن يخرج يوسف من البئر وبعد إدلاء الدلو ، ولعلها لما ثقلت عليه حين انتزاعه إياها ، خاطبه يوسف مستنجدا به لينقذه بإخراجه من غيابة الجب ، ويشبه أن يكون هذا هو المتبادر ، وإن كان يجوز أن يكون هذا القول بعد إخراجه إياه واطلاعه على حسنه والله تعالى أعلم .

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :

قلنا إن واردهم الذى ذهب ليستقى لهم كان معه بعض الرفقاء ليعينوه فى استخراج الماء وحمله إلى جماعتهم التى نزلت عن قرب من الجب ، ويدل لذلك قوله تعالى :

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :بضمير الجماعة ، كما تدل له طبيعة المهمة التى أرسل الوارد من أجلها ، فإنها تقتضى أن يقوم بها عدد منهم .

وبعد هذه المقدمة نقول : إن يوسف كان رائع الجمال ، وقد جاء فى حسنه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج بصحيح مسلم ، « فإِذَا أَنا بِيُوسُفَ إِذَا هُو قَدْ أُعْطِىَ شَطْرَ الحُسْنِ » ، فلما رآه وارد الماء ومرافقوه فى هذا الجمال عديم المثال (أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) : أى أخفوه متاعا للتجارة ، أى ـ أخفوه ـ عن باقى جماعتهم التى أرسلتهم لاستقاء الماء والمراد أنهم أخفوا أمره عنهم ، فلم يقولوا لهم إنهم أخرجوه من الجب حتى لايشاركوهم فى ثمنه إذا باعوه لتجار الرقيق بمصر ، بل قالوا لهم مايجعل الأمر فيه لهم ، كقولهم : إن أصحاب الماء أعطونا إياه لنبيعه لهم بمصر ونرد لهم الثمن ، ونقل القرطبى عن ابن عباس أنه قال : أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئسما صنعتم ، هذا عبد لنا أبقَ ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تقر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء وإما أن نأخذك فنقتلك فقال : أنا أُقِرُّلكم بالعبودية ، فباعوه منهم وقيل غير ذلك ـ والله أعلم .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) :

هذه الجملة وعيد لإخوة يوسف على ماصنعوه بشأنه من تآمرهم على قتله ، ثم إبداله بإلقائه فى الجب ، وتعريضه للعبودية .

٢٠ ـ (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) :

كلمة (شرى) تستعمل تارة بمعنى اشترى وأخرى بمعنى باع ، فهى تستعمل فى الضدين

وهى هنا بمعنى باع ، أى وباعوه بثمن قليل ناقص عن القيمة التى تؤدى لأمثاله من الرقيق ، وكان البائعون فيه من الزاهدين الذين لا يرغبون فى بقائه معهم ، وسبب ذلك أنهم التقطوه ، والملتقط للشىء متهاون فيه لكونه لقطة ، ولخوفه أن يظهر له مستحق فينتزعه منه ، فلهذا باعوه بالوكس لأول مساوم ليتخلصوا منه .

قال العلامة أبو السعود : ويجوز أن يكون معنى « شروه » الخ اشتروه من إخوته ـ على ماحكى ـ وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لما طنَّ[1] فى آذانهم من الإباق ، أى لما سمعوه من إخوته من أنه عبدهم هرب منهم ، فهم لهذا تساهلوا فى ثمنه ، ليتعجلوا التخلص منه قبل أن يهرب منهم ، كما هرب من بائعيه الذين زعموا أنه عبدهم وأنهم مالكوه .

(وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) : أكرمى موضع ثِوَائِهِ أى إقامته ـ من ثوى بالمكان ـ أى أقام به ـ

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ) : أى جعلنا له فيها مكانًا ثابتًا .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) : أى غالب على الأمر الذى يشاؤه ، فلا يستعصى عليه مراده ، أو معناه غالب على أمر يوسف ، فهو الذى يتولاه ويدبره ولا يكله إلى غيره .

---

(١) طن بالطاء أى تردد فى آذانهم .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) :

وبعد أن باعه الذين أخرجوه من البئر بثمن زهيد ، قال الذى اشتراه منهم من أهل مصر لامرأته : اجعلى محل ثوائه - أى محل إقامته - كريمًا حسنًا مرضيًا ، يريد من هذه العبارة تكليفها بإكرام يوسف على أبلغ وجه ، لأن إكرام محل إقامته بالعناية بشئونه ، يستلزم إكرامه هو ، فإن من قام بالعناية بمحل الضيف نظافة وفرشا ، فإنما يفعل ذلك لأجل الضيف ، فما ظنك بالعناية به هو شخصيًّا - فإنها تكون آكد وأعظم .

وهذا الذى اشتراه من أهل مصر هو عزيز مصر لقوله تعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ . . . . » .

قال الضحاك : العزيز : هو ملك مصر ، وقال ابن عباس : هو وزيره قطفير .

(عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) :

وقد أوصى العزيز الذى اشترى يوسف امرأته بالعناية به والاهتمام بشأنه كله ، وقال لها عسى أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا إذا تدرّب وعرف مجارى الأمور ، أو نتخذه لنا ولدًا ، فيكون شأنه منّا شأن ولد الصلب ، وإنما قال العزيز ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة .

أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه وجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : العَزِيزُ حينَ تَفَرَّسَ فى يُوسُفَ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ :(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)وَبِنْتُ شُعَيْبٍ حينَ قالتْ لِأَبِيهَا فِى مُوسَى ،(يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) وأبو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ » .

قال ابن العربى تعليقًا على هذا الخبر : عجبًا للمفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ، وليس كذلك فيما نقلوه ، لأن الصِّدِّيق إنَّما ولَّى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها والاطلاع على ما شاهده منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ، وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة ـ على ما يأتى بيانه فى (القصص) وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ، لأنه لم تكن معه علامة ظاهرة . . ا هـ[1] .

وإنما قال العزيز : (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) لأنه كان حصورًا لا يولد له كما قال ابن العباس ، وابن إسحاق .

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب ، وجعلنا له مكانًا عظيمًا فى قلب العزيز الذى اشتراه ، حتى أمر امرأته دون سواها من خاصته بإكرام مثواه ، جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ، حيث عرف فيها بأخلاقه الرفيعة ـ إلى جانب ما أضفاه العزيز عليه من البنوّة ، وما أعطاه الله إياه من الوجاهة ـ جعلنا له هذه المكانة فى الأرض ليترتب عليها ما جرى بينه وبين امرأة العزيز قبل أن يسجن ولنعلمه بعض تأويل الأحلام ، فتظهر براءته مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وليؤدى ذلك إلى المرتبة العليا ، والرياسة العظمى كما سيأتى بيانه فى رؤيا السجينين ورؤيا ملك مصر ، وكما يشير إليه قوله تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) :

أى والله غالب على أى أمر يريده ، لا يحول أحد دون تحقيقه ، فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ، ويدخل فى أمره تعالى شئون يوسف عليه السلام .

والضمير على هذا التأويل راجع فى كلمة (أمره) إلى الله تعالى ، وقيل :إنه عائد إلى يوسف ، أى والله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : أى الأمر كله لله تعالى ، فيزعمون أن لهم من الأمر شيئا « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ »

---

(١) أنظر الآلوسى فى خبر ابن مسعود ص ١٨٥ جـ ١٢ طبعة منير ، والقرطبى ص ١٦٠ جـ ٩ طبعة دار الكتب فى تعليق ابن العربى .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بَلَغَ أَشُدَّهُ)[1] : استكمل قوته الجسدية والعقلية .

(آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) : أعطيناه حكمة وفقها فى الدين .

التفسير

٢٢ ـ (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

علم من الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام ، كان فى بيت عزيز مصر ، يعامل معاملة كريمة ، بوصية من العزيز ، وأنه عومل هذه المعاملة رغبة فى أن ينفعهم حينما يكتمل نموّه ، أو أن يكون لهم ولدًا ، لما كان يبدو عليه من مخايل الرشد والنجابة وأنه تعالى مكّن ليوسف فى أرض مصر بسبب مافطر عليه من هبات الله التى حببته إلى أهلها وما أسبغه عليه العزيز من العناية فى التربية ، وقد جاءت هذه الآية لتبين لنا طرفًا آخر من قصته ، وذلك حين جاوز مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب وبلوغ الأشد ، واختلف فى المراد بالحكم والعلم فى الآية ، فمن قال : إنه أُوتى النبوة صبيًا ، وفسّر الآية بقوله : ولما بلغ أشده زدناه فهما وعلما ، فوق النبوة ، وقد حمله على ذلك قوله تعالى فى شأن يوسف قبل استخراجه من غيابة الجب : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ » .

(١) يرى سيبويه أن أشد جمع ، واحده شدة ، ويرى الكسائى أن مفرده شد ، وقال أبو عبيد لاواحد له من لفظه .

فالإيحاء هنا على رأيه هو إنزال الملك إليه بالوحي . ومن قال إن الإيحاء حينئذ كان إلهاما أو نحوه ، فسر الحكم بالنبوة ، والعلم بعلم الدين ، وإلى هذا ذهب ابن عباس حيث قال : الحكم النبوة ، والعلم الشريعة .

ومنهم من فسر الحكم بالحكمة ، وهى حبس النفس عن هواها ، وصونها عمًّا لا ينبغى ، وفسر العلم بالعلم النظرى ، ومنهم من فسر الحكمة والعلم بالحكم بين الناس وعلم مصالحهم وشئونهم ، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز ، أمره أن يحكم بينهم ، لما رأى من عقله وإصابته فى الرأى . ويقتضينا هذا الخلاف ، أن نفسر الآية الكريمة تفسيرًا يتفق مع ماسبقها وما يليها ، حيث يناسب المقام والمناخ الذى سيقت له ، ولا يمنع من قبول أى رأى من هذه الآراء فنقول :

ولما بلغ يوسف منتهى قواه الجسدية والعقلية ، وأصبح أهلا لتحمل أعباء الحياة والحكم بين الناس فى قضاياهم المختلفة ، وتوجيههم إلى الخير والبر والهدى ، آتيناه حكمة فى القول ، وإصابة فى الحكم وعلمًا غزيرًا ، وبَصَرًا بالأمور . ومثل ذلك الجزاء الجميل ، نجزى كل من يحسن فى عمله .

(وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(وَرَٰوَدَتۡهُ) : المراودة ؛ الرفق فى الطلب ، يقال فى الرجل راودها عن نفسها ، وفى المرأة ، راودته عن نفسه .

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ): أحكمت إغلاقها . (هَيْتَ لَكَ): هيت اسم فعل أمر بمعنى: أقبل وبادر ، واللام فى (لَكَ) للبيان - أى لك أقول هذا - كما فى هلم لك ، وقُرِئَ : (هِئْتُ لَكَ) بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك ، فهو فعل ماض وفاعله .

(مَعَاذَ اللهِ) : أستجير بالله وأعوذ به معاذا مما تدعيننى إليه .

(إِنَّهُ رَبِّى) : إنه سيدى الذى ربانى .

(أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) : أحسن إكرامى فى مثواى ومقامى عنده فلا أخونه

(هَمَّتْ بِهِ) : عزمت وأصرت على مخالطته .

(وَهَمَّ بِهَا) : شرع يدفعها عن نفسه .

(لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) : أى حجته التى منعته من الانتقام منها .

التفسير

٢٣ - (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) :

تحدثت الآيات السابقة عن شراء عزيز مصر ليوسف . وأنه أمر زوجته دون سواها أن تكرمه وتعنى به لعله ينفعهم أو يتخذونه ولدًا . وأنه بذلك وبما كان عليه من العقل والوجاهة وحسن المعاشرة مع الناس مكن الله له فى الأرض ، وأنه لمَّا بلغ أشده آتاه الله الحكمة والعلم . فاكتمل شبابه بالقوة والحكمة والعلم إلى جانب ما هو عليه من الجمال حتى بلغ شطر الحسن كما قال صلى الله عليه وسلم .

وكانت امرأة العزيز ترى هذا كله أمامها ، وتشعر فى نفسها أنه جدير بالإعجاب والحب ، فأُعجبت به وأحبته وراودته عن نفسه كما جاء فى هذه الآية الكريمة ، أى طلبت منه مخالطتها : وأصل المراودة الطلب برفق ولين . ومن هذه المادة يطلق الرائد على طالب الكلإ والماء ، وصيغة المفاعلة تقتضى حدوث الفعل من الجانبين كقاتل وضارب وصارع وغالب ، ولكنها قد تستعمل من جانب واحد كما فى مطالبة الدائن ومماطلة المدين ومداواة الطبيب وغير ذلك ، والمراودة هنا كذلك ، فإنها من زوجة العزيز ليوسف ، أما هو فقد استعصم - كما سيأتى بيانه - وكما يشير إليه قوله تعالى : (عَن نَّفْسِهِ) فإنه يشير إلى أنها تخادعه وتريد أن تجذب منه مطلبها ، قال الزمخشرى : أى فعلت ما يفعله

المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لايريد أن يخرجه من يده : يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه – الخ ا هـ .

والمعنى : واحتالت امرأة العزيزالتى هو فى بيتها حيث موضع التكريم والعناية ، احتالت عليه وطالبته برفق وخديعة ، أن يمكنها من نفسه فيخالطها مخالطة الرجل للمرأة ، وغلقت الأبواب التى توصل إليهما وأحكمت إغلاقها ، وقالت هيت لك[1] – أى أسرع[2] والطلب موجه لك – فكأنها تقول إرادتى كائنة لك .

وقد وقعت هذه المراودة من نفس يوسف موقع الإباء والرفض حيث قال لها : (. . . مَعَاذَ اللهِ) :

أى أعوذ بالله تعالى معاذا مما تريدين منى فهو أمر منكر هائل يستعاذ بالله للخلاص منه ومن سوء عاقبته ، وعلل رفضه لمطلبها بما عسى أن يصرفها عنه ، ويدعوها إلى مراجعة نفسها والإقلاع عن خيانتها لزوجها ، مما سمعته منه من أنه لا يصح أن يخونه وقد أحسن إليه وذلك قوله لها .

(إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) : أى إن الأمر والشأن الخطير الذى يمنعنى من إجابتك هو سيدى الذى ربانى وأحسن تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى فكيف أسيء إليه بخيانته فى حرمه .

واختار أبو حيان أن الضمير لله تعالى ، والمعنى على هذا إن الله تعالى خالقى أحسن مثواى بعطف قلب من أمرك بإكرامى : فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ثم أيد يوسف امتناعه عن تلبية مطالبها وعلله بعلة أخرى فقال :

(إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : أى إن الشأن فى سنة الله فى خلقه وعدالته هو أنه لا يفوز الظالمون فى دنياهم وأخراهم ، أما دنياهم فيعاقبون فيها بالعلل والأسقام ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، وغير ذلك من الآفات وأما أخراهم فالجحيم والزمهرير ، ومن فاتته عقوبة الدنيا ، أدركته عقوبة الآخرة « وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ »[3] .

(١) اللام فى كلمة (لك) لتبيين من له الخطاب كما فى (سقيا لك) .

(٢) وقيل إنه اسم فعل ماضى معناه تهيأت لك ، وبهذا التأويل وافقت قراءة مروية عن ابن عباس (هئت لك) بكسر الهاء وبالهمزة الساكنة وضم التاء .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٢

٢٤ ـ (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) :

حكت الآية السابقة موقف يوسف الحاسم أمام مراودة امرأة العزيز له وطلبها مخالطته ، وتهيئتها كل الأسباب لاجتذاب ميله ، وأولها تهيئة نفسها له ذاتا وثيابا وتغليقًا للأبواب وآخرها دعوة رقيقة له بقولها تهيأت لك ولم أتهيأ لغيرك ، ولابد أن هذه الدعوة التى حكاها القرآن هى إجمال كريم لدعوة مختلفة الأساليب تجيدها المرأة الوالهة ، ويعف القرآن الكريم عن التصريح بها ، وكان رد يوسف الحاسم عليها هو قوله لها :

(مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :

ولقد ظن يوسف أن هذا الذى قاله لها سيجعلها ترجع عن موقفها الشائن نحو زوجها ونفسها ونحو ربيب نعمتهم ذى الأخلاق الفاضلة التى لاتسمح له بالخيانة لرب نعمته ، ولكنها لم ترعو عن غيها وانتهت إلى موقف آخر يتسم بالعزم والإصرار على تنفيذ جريمتها وهو ما حكته هذه الآية من قوله تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) : ولكنه عليه السلام أصر على موقفه السلبى منها ، وعزم على وضع حد لتشبثها . فمانعها وهمَّ بإيذائها ، وفيما يلى معنى الآية على هذا التأويل الذى تطمئن له نفوسنا .

المعنى : ولقد همت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام تجذبه إلى نفسها . وتوسعه لوما على موقفه منها مع أنها هى التى طلبته وراودته ، وأذلت له نفسها ، وهو فى نظرها عبد لها وهى سيدته ، ولكنه همَّ بها يدفعها عن نفسه وكاد يضربها لمزيد إصرارها على مخالطته ، لولا أن رأى فى ضميره برهان ربه يصرفه عن ضربها ، لأنها آوته وأكرمته ، ولأنه لو ضربها لادعت أنه راودها ، ولما امتنعت من إجابته ضربها ، لولا ذلك لضربها وانتقم منها لهذه الجريمة التى دبرتها له وهو منها برىء ومعصوم .

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) :

أى فعلنا مثل ذلك التثبيت بالبرهان مع يوسف ـ عليه السلام ـ لنصرف عنه السوء . وهو ضرب من أكرمته وآوته ، ولنصرف عنه الفحشاء التى دعته إليها ـ وهى المخالطة ـ إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لنا وهم آباؤه الذين أخلصهم ونقَّاهم

من شوائب النقص ، فقد قال الله تعالى فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ »[١]

وفسرها بعض العلماء بقوله : ولقد همت به المرأة ضربا ــ لأنه أذلها وحطّم كبرياءها ، وهم بها دفاعا عن نفسه . ولكن ماقلناه أولى ، فإن حبها الشديد له وجذبها له من قميصه يمنع من أنها تفكر فى ضربه ، ولهذا ترجح ما قلناه قبل ذلك ، وقيل الهم منها عزم وإصرار على المعصية ، ومنه مجرد خطور بالبال بمقتضى الطبيعة البشرية مع الاعتصام بالتقوى . وسمى باسم الأول مشاكلة . ويدل لذلك أن الله تعالى مدحه بأنه من عباده المخلصين . ولا يكون ذلك إلا مع سلامة الإرادة وقوة الوازع المتمثل فى برهان ربه . وهذا ليس قادحا فى العصمة . فإنه تعالى هو العاصم وقد عصمه ببرهانه ، وهو الحجة التى أقامها الله فى نفسه على التحريم حين المراودة منها له ولجاجتها عليه وقوة البرهان وسلطانه على إرادة الأنبياء ينتهيان دائما إلى العصمة من دواعى البشرية المحرمة ، ولاشك أن الامتناع مع الخطور بالبال يدل على قوة الوازع وقوة الإرادة أكثر من الامتناع مع عدم وجوده ــ ومع جودة هذا الرأى فما قلناه أولا هو أفضل الآراء . وهو ما وفقنا الله له . والله تعالى أعلم .

وقد ضربنا صفحا عما سطره بعض المفسرين من القصص الهابطة التى ذكرت فى تفسير الآية . وينبو قلمنا عن تسطيرها .

---

(١) سورة ص ، الآيات : ٤٥ ــ ٤٧

(وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) أى تسابقا إليه ، كل يريد أن يصل إليه قبل الآخر : هى لتمنعه من الخروج وهو ليهرب منها .

(وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ) : أى قطعت قميصه من خلفه ، والقد : القطع . وأكثر ما يستعمل فى القطع الطولى . أما القط فيستعمل فى القطع العرضى . . . قاله القرطبى وغيره .

(وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) : ووجدا زوجها – عزيز مصر – عند الباب الذى تسابقا إليه ، وهو الباب الأخير الذى يؤدى إلى خارج ما غلقت أبوابه .

التفسير

٢٥ – (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ...) :

حكت الآيتان السابقتان الحب الشديد الذى أخرج امرأة العزيز عن الوقار ، وأذلَّها حتى هبطت إلى أن تراود يوسف ربيب نعمتها عن نفسه ، وتحكم إغلاق جميع الأبواب حتى تستحكم خلوتها به ، ولا ينغص عليها فى مخالطتها له منغص ، ودعته برفق إلى قضاء لبانتها من مخالطته إياها ، وأنه أبى عليها هذه الجريمة التى تختان بها زوجها ، وتحمله على أن يشاركها فى هذه الخيانة مع أنه أحسن إيواءه وتربيته ، كما حكت أنه عليه السلام ،

استعاذ بالله ولجأ إليه لكي ينقذه من هذا الإثم والظلم المبين ، وأنها قابلت هذا الامتناع الحازم من يوسف بمزيد من الهمة والإصرار وتحريضه على مخالطتها بمختلف الوسائل ، من جذب ولوم وأسى وغير ذلك ، وأنه لم يجد بدًّا من أن يهم بضربها لتكف عن غيها ، ثم تراجع عما همّ به من إيذائها حين رأى فى قرارة نفسه وبإلهام من ربه ، رأى حجة الله وبرهانه على أن إيذاءها وهو يمنعها عن نفسه ، سوف تتخذه دليلا على أنه هو الذى طلب مضاجعتها ، فلما أبت عليه ضربها وآذاها ، فلهذا كف عنها .

وجاءت هذه الآية لتبين أن كليهما قد أسرع إلى الباب ، فأما يوسف فقد أسرع إليه ليتخلص من شَرَك هذه المرأة الوالهة وشرها ، وأما هى فقد أسرعت لتمنعه من الهرب وتحمله على الاستسلام إليها ، ولما سبقها هو إلى الباب جذبت قميصه من خلفه جذبة قوية ترتب عليها قطع القميص من خلفه ، حيث كانت تجذبه منه وعندما وصل الأمر بينهما إلى هذه الحال وجدا سيد المرأة – أى زوجها – عند الباب . الذى أراد يوسف الخروج منه – وكان قد فتح – حتى أصبحا وجها لوجه أمام العزيز لدى الباب ، ولم تصرح الآية بمن فتحه ، فهل فتحه العزيز لما وصل إليه خبر هذه الاحتياطات التى اتخذتها امرأته لمراودة يوسف ، أو فتحه حين وصلت إليه أصوات المشادة التى حصلت بينهما ، أو أن يوسف هو الذى سبق إليه وفتحه ، وصادف مجىء العزيز حينئذ ، وهذا هو الظاهر ، لأن المرأة كانت قد غلقت الأبواب من الداخل فلا تفتح إلا من الداخل ، والمراد من الباب هنا الباب الأخير الموصل إلى الخارج ، وهو الذى رأيا سيد المرأة عنده ، أما الأبواب الأخرى التى غلقتها فلابد من أن يوسف كان قد فتحها مسرعا قبل أن يصل إلى هذا الباب الأخير الذى أدركته عنده وشقت قميصه وهى تجذبه إليها حتى لا يفلت منها بعد أن وصل إليه ، ولما وجدت نفسها أمام زوجها فى هذه الحالة النكراء ، برّأت نفسها ومكرت بيوسف بأخبث أسلوب ، وذلك ما حكاه الله تعالى بقوله :

(... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى قالت امرأة العزيز لزوجها حين رآهما على هذه الحالة : ما جزاء هذا الذى دخل على مخدعى وأراد سوءا بزوجك التى هى أهلك وعرضك الذى يهمك أمره ، ما جزاؤه سوى

أن يسجن ليمنع شره عن النساء ، أو عذاب شديد الإيلام ، حتى لا يعاود مثل هذه الإرادة الرعناء .

بهذه الحيلة أرادت أن تبعد التهمة عن نفسها وأن تهدد يوسف بقدرتها على سجنه وتعذيبه طمعا فى أن يستجيب لها اضطرارا بعد أن فقدت الأمل فى أن يستجيب لها اختياراً لكن يوسف لم يأبه لتهديدها ـ كما سيتضح بعد من قوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » بعد قولها : « وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ » وسيأتى بيان ذلك .

٢٦ ـ (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ...) :

أى قال يوسف للعزيز دفاعا عن نفسه بعد أن اتهمته زوجته بأنه أراد اغتصابها : قال يوسف لم يحدث منى شيء مما تقوله ولكن الذى حدث أنها هى التى راودتنى على أن أنزل لها عن نفسى ولم أوافقها على ما طلبته منى . وبهذا حصل التعارض بين اتهامها ودفاعه ، واحتاج الفصل فى القضية إلى شاهد ، وذلك هو ما قصه الله تعالى بقوله :

(... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

اختلف المفسرون فى هذا الشاهد ، فقيل : إنه طفل فى المهد شهد بما فصله الله بعد ، وكان من أهل امرأة العزيز ـ قال السهيلى ـ وهو الصحيح ـ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ » وذكر منهم شاهد يوسف .

وقال القشيرى أبو نصر : قيل كان صبيًّا فى المهد فى الدار وهو ابن خالتها .

وقيل : هو رجل حكيم ذو عقل كان العزيز يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها ، فقال : قد سمعت الاستباق والجلبة وراء الباب وشق القميص ، فلا يُدرَى أيكما قُدَّامُ صاحبه ، فإن كان شقّ القميص من قُدّامِه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف .

ونسب هذا القول إلى الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدى .

قال السدى : كان ابن عمها ، وروى عن ابن عباس وهو الصحيح فى الباب والله أعلم ا هـ . ذكره القرطبى .

وقال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره فجاء بهذه الدلالة ، ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف — صلى الله عليه وسلم — تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة ، لأن كلام الطفل آية معجزة فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة .

ونحن نرى أن الذى قاله أبو جعفر النحاس هو الأجدر بالقبول فكلام الشاهد كلام رجل حكيم ذى بصر بالأمور ، وليس فى النص الكريم ما يدل على أنه طفل ، بل يوجد فى صحيح السنة ما يفيد حصر المتكلمين فى المهد فى ثلاثة ، وليس فيهم شاهد يوسف ، فقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَم يَتكَلَّمْ فِى المَهْدِ إلا ثَلاَثَةٌ : عيسَى بنُ مَرْيمَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَصَبىٌّ كَانَ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ ، فَمَرَّ رَاكِبٌ كَانَ حَسَنَ الهَيْئَةِ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِى مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ الصَّبِىُّ الثَّدْىَ وَقَال : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِى مِثْلَهُ » .

وقد اعتبر الطيبى هذا الحديث يرد الحديث السابق المروى عن أحمد ، انظر الآلوسى ج ١٢ والقرطبى ج ٩ والله أعلم .

ويلاحظ أن هذا الكلام من القريب لا يعتبر شهادة ، لأنه لم ير شيئا مما حدث ، ولكنه لما كان يرشد إلى دليل الحكم ، أطلق عليه شهادة مجازا ، لأنه يشبهها فى التوصيل إلى الحكم الصحيح .

والمعنى : وأرشد مرشد حكيم من أهل امرأة العزيز إلى دليل الحكم ، بعد ما علم باتهامها ليوسف ، وبما قاله يوسف دفاعا عن نفسه ، وقد اشتبه الأمر واحتاج إلى مرجح فقال : إن كان قميص يوسف شق من قدامه ، فقد صدقت فى دعواها أنه أراد بها سوءا فهو قرينة على أنه بادرها بالاعتداء ، فنازعته وأخذت بتلابيبه من قدامه ، وجعلا يتصارعان وهى ممسكة

بتلابيبه فشق القميص فى يدها من قدامه وهو يخلصه منها ، وهو حينئذ من الكاذبين فى دعواه أنها راودته عن نفسه فا متنع .

٢٧ - ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ :

أى وإن كان قميصه شق من خلفه فقد كذبت فى دعواها أنه هو الذى أراد بها سوءًا ، وهو من الصادقين فى قوله : أنها هى التى راودته عن نفسه ، وأنه أسرع إلى الباب ليهرب منها ، ووجه دلالة شقه من الخلف على صدقه ، أنه يؤذن بأنها تبعته وجذبت ثوبه من الخلف لتمنعه من الهروب مما دعته إليه .

قال القرطبى فى المسألة الثالثة : فى هذا الموضوع مايفيد أن الحكم بالأمارات عند فقد الشهود يؤخذ به فى اللقطة وكثير من المواضع ، حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت أمتعة معهم فادّعاها قوم وليست لهم بينة فإن الحاكم ينتظر بعض الوقت ، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم .

وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلف فيه الرجل والمرأة : إن ما كان للرجال فهو للرجل ، وما كان للنساء فهو للمرأة وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان العلامات فى الحكومات أى فى القضايا التى لا شهود فيها ، وأصل ذلك هذه الآية : ا هـ

(فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مِن كَيْدِكُنَّ) : من احتيالكن ومكركن أيتها النساء .

(مِنَ الْخَاطِئِينَ) : من المذنبين المتعمدين : من خطىء المرءُ إذا تعمد الذنب ، ومضارعه يخطَأُ بوزن يأْثَم بفتح الثاء ومصدره الخطءُ بكسر الخاء بوزن الإثم .

التفسير

٢٨ - (فَلَمَا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) :

أى فلما رأى سيدها - أى زوجها - قميص يوسف شق من خلفه . قال لامرأته : إن اتهام يوسف بأنه أراد بك سوءًا ناشىءٌ من كيدكن أيتها النسوة للرجال ، فأنت التى راودتِه فلم يفعل ، وفرَّ منك فاجتذبتهِ إليكِ وأنتِ كاذبة فى نسبة إرادة السوء إليه .

وقد أصاب العزيز فى الحكم بأن كيد النساء عظيم ، لأنه أشد تأْثيرًا فى النفس ولأنه قد يورث من العار أشد مما يورثه كيد الرجال ، ولتفرغهن لهذا الفن أكثر منهم ، ولهذا كن أعظم وسائل الشيطان فى عصيان الله - تعالى - قال حكيم : « ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء » .

ولهذا قال بعض العلماء : أنا أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان ، فإنه - تعالى - يقول فى حق الشيطان : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » وقال فى حق النساء : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » .

٢٩ - (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) :

بعد ما ظهرت براءة يوسف، وكيد المرأة ، قال العزيز : يايوسف أعرض عن هذا الإثم ولا تلتفت إليه ، ولاتتحدث عنه ، حتى لا تفتضح امرأتى بين الناس، واستغفرى أنتِ أيتها المرأة من ذنبك الذى صدر عنك فى حقى وحق يوسف إنك كنت من صنف الخاطئين الآثمين المتعمدين اقتراف الذنب ، ولم يحدث منك عفوًا .

ويلاحظ أنه أمر امرأته بالاستغفار لذنبها ، والاستغفار طلب الغفران ، والتجاوز عن الذنب ، وهذا يحتمل أنه يريد أن تطلب منه الصفح والمغفرة لما بدا منها ، أو أن تطلب الغفران من الله - تعالى - إن كانوا يعتقدون أن لهم إلٰهًا أكبر من آلهتهم التى يعبدونها ، وأنهم يتقربون بعبادتهم إياها إليه كشأن عبدة الأوثان فى كل مكان ، ولعله يشير إلى ذلك قول يوسف : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(نِسْوَةٌ) : جماعة من النساء لا واحد له من لفظه .

(امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : زوجته .

(تُرَاوِدُ فَتَاهَا) : تطالب فتاها بمضاجعتها وتخادعه عن نفسه .

(شَغَفَهَا حُبًّا) : شق حبه شغاف قلبها ، والشغاف حجاب القلب – والمراد أن حبه تمكن من قلبها .

(ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) : بُعْد عن طريق الصواب والعفة بيِّن واضح .

(مُتَّكَئًا) : ما يتكأ عليه من النمارق والوسائد .

(أَكْبَرْنَهُ) : أعظمنه وتهيبنه .

(حَاشَ لِلهِ) : تنزيهًا له عن صفات العجز والنقص . والمراد التعجب من حسن يوسف

التفسير

٣٠ – (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) :

كان لمراودة امرأة العزيز ليوسف – عليه السّلام – دوى هائل بين القصور ، فتناولتها الألسنةُ حتى قال نسوة من عقائل أشراف المدينة – عجبًا من هذه المرأة وانتقاصًا لها كيف تنزل امرأة عزيز مصر – وهى فى مكانها الرفيع – إلى هذا الحد الوضيع ، فتراود فتاها عن نفسه وتطالب غلامها بمخالطتها ، قد تمكن حبه من قلبها فملأه ولم يدع فيه مجالاً لسواه ، حتى كاد ينفطر من شدة الحب .

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) :

أى إنا لنعلمها فى بُعْدٍ واضح عن الصواب والعِفَّة والكرامة ، حيث سمحت لنفسها بالهبوط إلى هذا الدرك الأسفل ، بمراودتها لمملوك لها ، وأمرها نافذ فيه وكيف تجاوز حبها له أقصى الحدود ، حيث مزقت ثيابه حينما حاول الإفلات منها ، وكيف تفعل معه ذلك ولها زوج عظيم ، هو عزيز مصر ، إنها لخائنة ذليلة النفس .

٣١ – (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا) :

أى فحينما بلغ هذه المرأة ماقالته نسوة المدينة فى شأن عشقها ليوسف أرسلت إليهن تدعوهن إلى ضيافتها ، وهيأت لهن من النمارق والوسائد مايتكئن عليه فى أثناء الطعام والشراب والحديث ، وأعطت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به مايحتاج إلى القطع من

الطعام كاللحم والفاكهة ، وغرضها من ذلك ماسيقع من قطعهن لأيديهن من شدة انبهارهن من جماله ــ كما سيأتى بيانه ، وسمى اغتيابهن لها مكرًا لكونه خفية منها كمكر الماكر ــ وإن كان ظاهرًا لغيرها ، وكان المترفون فى الزمان الخالى يجلسون للطعام على الوسائد والنمارق ، فإذا انتهوا منه أتموا وقتهم فى الحديث وهم على وسائدهم جالسون ، ولا تزال هذه الطريقة متبعة فى ولائم العرب ملوكًا ورعايا ، وكذا فى بلاد كثيرة .

وفسر بعضهم « المتكأ » بالطعام ، أخذًا من قولهم اتكأنا عند فلان ــ أى طعمنا عنده ــ قال جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قُلَلِه

وقال مجاهد : (متكأً) : أى طعامًا يُحزُّ حزًّا ، كأن المعنى : يعتمد عليه بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين .

(وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ....) الآية .

كان الطعام بين أيدى هؤلاء النسوة المدعوات ، وكن مشغولات به أكلاً وتقطيعًا بالسكين ، ولم يكن يوسف حاضرًا ، فدعته قائلة : اخرج عليهن ، تريد بذلك أن يفاجئهن بجماله وهن ممسكات بالسكاكين ، ولم يكن يدرى ماذا تخبئه له هذه المرأة الماكرة ، فخرج عليهن فحينما رأينه فى جماله الفتّان ، وحسنه الرائق الفائق ، عظّمنه وتهيّبن حسنه الرائع ، وجرحن أيديهن بما معهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن ، وخروج الأمر عن منهاج الإرادة والاختيار ، حتى لم يشعرن بما فعلن ، (وَقُلْنَ) : تنزيهًا لله ــ تعالى ــ عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى ، (حَاشَ لِلَّهِ) وغرضهن من ذلك التعجب من قدرته ــ سبحانه ــ على خلقه ، وقلن أيضًا : (مَا هَذَا) الذى نراه (بَشَرًا) ، فما مثله فى الناس أحد ، (إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) ، يردن بهذه العبارة وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ، وهكذا جرت العادة فى تشبيه كل متناهٍ فى الحسن بالملك ، كما جرت فى تشبيه كل متناهٍ فى القبح بالشيطان .

(قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾) .

المفـردات :

(لُمْتُنَّنِى فِيهِ): عيَّرتُنَّنِى فى الافتتان به . (رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) : أى طلبت مخالطته وخادعتُه عن نفسه ليحقق لى ما أرجوه من ذاته . (فَاسْتَعْصَمَ) : أى امتنع طالبا للعصمة مما دعوتُه إليه ، وبالغ فى ذلك كما تدل عليه السين والتاء كما فى استمسك واستجمع الرأى .

(مِنَ الصَّاغِرِينَ) : من الأذِلَّاء . (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) : أستجب إلى هواهن .

(مِنَ الْجَاهِلِينَ) : أى من أهل الجهالة ، والمراد منها هنا السفاهة وفقدان الحكمة والرشد.

(فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) :منع أثره عنه فلم يحقق لهن ما أردنه منه بما حصنه به من قوة الثبات على العفَّة .

التفسـير

بعد أن تحقق لامرأة العزيز ما أرادت من اطِّلاع النسوة على جمال «يوسُف» عليه السلام وتأثرهن به أكثر من تأثرها به ، حتى وصل أمر الدهشة بهن إلى أن فقدن الإرادة والاختيار ، فجرحن أيديهن تجريحا من غير وعى ، وكأنهن كن يقطعن الطعام الذى بين أيديهن ، بعد أن تحقق هذا كله ، وجهت امرأة العزيز الخطاب إلى أولئك النسوة ، مبينة لهن أنها لم تكن مختارة فيما طلبته منه من المخالطة ، لشدة سلطان

جماله عليها ، وصرحت لهن بما كانت تنكره أمام زوجها عزيز مصر : فقالت إنها هى التى راودته عن نفسه فامتنع ، وذلك ما قصه الله - تعالى - بقوله :

٣٢ - (قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :
وكلمة (فَذَٰلِكُنَّ) : فيها إشارة (بذا) إلى يوسف ، وخطاب بحرف (كن) إلى النسوة .

والمعنى : قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتى دعتهن لطعامها بعد أن فتنهن جمال يوسف : فذلك الذى فتنتن به وقطعتن أيديكن من أجله وقلتن إنه يشبه فى الحسن والجمال الملك الكريم ، هو يوسف الذى وجهتن إلىَّ الملام بسببه وقلتن عنى : « امْرَأَةُ العزيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » : وقد ملأ حبُّه قلبها ، ونحن نراها من أجل ذلك فى ضلال واضح ، فلم يعد لكنَّ بعد ذلك الذى حدث منكن بسبب جماله مايدعوكن لملامى ، وإنى أُؤكد لكن بصراحة أننى أنا التى طلبته لمضاجعتى فامتنع وبذل أقصى الجهد فى الإباء والتحفظ الشديد - وبعد أن بسطت العذر لهن عما كان منها ، هددته بأسلوب الملوك وأهل القهر فى جملة من التأكيدات قائلة :

(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) :

أى ولئن أصرَّ يُوسُف على إبائه ولم يفعل ما آمره به من المضاجعة ، ليوضعن فى السجن ، وليكونن فيه من الأذلاء .

ومما سبق تعلم أن يوسف - عليه السَّلام - لم يتجه بشهوته البشرية نحوها ، فقد ظل سنين عديدة تحت رعايتها وإكرامها وبين يديها ، ولم يتجه إليها بنظرة خبيثة ولا بعبارةٍ نابية ، وذلك لكمال نفسه وطيب خلقه ، وإعداد الله إياه للنبوة التى تنتظره وقد تأكدت هذه العصمة الربانية وتجلت بأجلى مظاهرها ، حين دعته إلى مخالطتها وبذلت له من أساليب الإغراء ما بذلت ، لترفع بذلك عن نفسه الخشية منها وتهيب مقامها وتدفعه إلى الرغبة فيها والاجتراء عليها بعد أن أذلت له أنوثتها ، وأنه مع هذا الإغراء والتمكين التام ، امتنع وأبى قائلا : « مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ » فاستعاذ بالله ولجأ إليه ليعصمه منها ، ويحميه من شباكها ، وأكد هذا الامتناع بأنه لا يخون

سيده الذى اشتراه ورباه وأحسن مثواه ليثير بذلك وازع الأمانة فى نفسها نحو زوجها ، فلعله يستيقظ من سُباته فيكُفها عنه ، ولكنها أصرَّت ، فذهب إلى الأبواب ليفتحها ويهرب منها ، فهمت به تمنعه وتجذبه إليها ، وهمَّ بها يدفعها عن نفسه ويحاول أن يضربها لولا أن رأى فى نفسه حُجَّة ربِّه والهامه إياه أنه لو ضربها لاستخدمت هذا الضرب حجة لها على أنه هو الذى راودها عن نفسها ، ولما امتنعت ضربها ، فكف عن ضربها ، وتمت عصمة الله له ، وعند الباب الخارجى بوغتا معا بالعزيز فتتهمه المرأة بأنه أراد بها سوءا ، ويكذبها قميصه الذى قُدَّ من دُبُرٍ ، ويقتنع العزيز ببراءته ويوصيه بأن يعرض عن هذا الأمر فلا يذيعه فى الناس ، ولكن نساء القصور يجدن دائما من يتطوع بإذاعة أخبارهن ، وهكذا كان الأمربالنسبة لامرأة العزيز مع يوسف فلما تسرب أمرها مع يوسف إلى نساء الأمراء وعبن عليها ما فعلته مع غلامها الذى ترفع عليها وقاومها ، أرادت أن تقطع ألسنتهن عن غيبتها والتشهير بها ، بإيقاعهن فى شرك هواه والافتتان به مثلها ، فأعدت لهن مأْدبة يُستعمل فى طعامها السكاكين ، وبينما هن يأْكلن والسكاكين فى أيديهن يقطعن بها الطعام ، أخرجت يوسف عليهن ففوجئن بجماله الفتان فجرحن أيديهن بالسكاكين من شدة الذهول الذى أصابهن من جماله وقلن إعجابا به : « مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

وكأنهن بهذه العبارة يقلن لها أنت معذورة فيما فعلت معه لروعة جماله وقوة تأْثيره على النساء .

فلما ظفرت منهن بهذا الإقرار الذى يحمل معه الاعتراف بأنها معذورة فيما صنعت ، أجترأت على المصارحة بما لم تصرح به من قبل ، فقالت :

(فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

وبذلك التصريح كذبت نفسها فيما قالته لزوجها من أنه أراد بها سوءا ، واعترفت بأنها هى التى راودته وأنه هو الذى امتنع أشد الامتناع وجاهد فى سبيل التخلص منها

وزادت على ذلك أنها مصرة على تحقيق رغبتها فيه من المخالطة لا يصرفها عنها لوم العوازل ، ولا إعراض الحبيب فقالت مهددة له :

(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) :

ليعلم يوسف أنها ليست فى أمرها معه على خفية ولا خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولكى ينصحه أولئك النسوة بموافقتها ، وإزاء هذا كله ماذا صنع يوسف عليه السلام – هذا ما يجيب عنه قوله تعالى :

٣٣ – (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ) :

أى قال يوسف بعد هذا التهديد والوعيد : يارب دخول السجن آثر عندى وأسهل وأهون من المخالطة التى يدعوننى إليها ، وإلا تصرف عنى كيدهن بتثبيتى على ما أنا عليه من العصمة والعفة ، وردعهن عنى ، أجبهن إلى ما طلبنه منى بمقتضى الطبيعة البشرية ، وأكن بذلك من أهل الجهالة والسفه ، الذين لايعملون بما يعلمون ، فإن من لم يعنه الله على العفة والحصانة ، مع هذا الإغراء والقهر قد يخونه طبعه البشرى وجبلته ، وتتحكم فيه قوته الشهوية ، واعلم أن السجن فى ذاته ليس محبوبا ، كما أن إجابتها إلى ما طلبته كذلك ، فهى والسجن شرّان غير محبوبين له ، ولكن أهونهما وأقربهما إلى نفسه هو السجن ، ليتخلص به من الفاحشة الكبرى فلذا عبر فى جانبه بقوله :

(أَحَبُّ إِلَيَّ) : بمعنى أسهل عليَّ – على سبيل المجاز – وقد يقال إن أهون الشّرين يحب أحيانا ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتخليصه من شرٍّ أكبر وعلى أى حال فأفعل التفضيل على غير بابه .

ومما ينبغى التنبيه إليه أنه لم يرد فى النص الكريم أن النسوة المدعوات للمأدبة ، دعونه إلى الاستجابة لامرأة العزيز ، ولا إلى الفاحشة معهن ، فلهذا يحمل قوله تعالى : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) على أنهن لما تأثرن بجماله إلى درجة أنهن قطعن أيديهن دعونه إلى مطاوعتها ، بل ربما طلبن منه مثلما طلبت منه ، وقيل : إن ضمير جمع النسوة فى قوله : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

إلخ راجع إلى امرأة العزيز إما للتعظيم لشأنها ، وإمَّا للتعريض بدل التصريح ويرجح الرأى الأول قوله تعالى حكاية عن الملك : « قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ »[1]

٣٤ - (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أى فتفضل عليه ربه الذى يتولى تربيته وحمايته فاستجاب له دعاءه الذى تضمنه قوله : « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ » ولهذا ثبته وأيأسهن من موافقته لهن فصرف بذلك كيدهن عنه ، إنه - تعالى - عظيم السمع والعلم فلا يخفى عليه حاله ولا حال غيره ، وهكذا يستجيب الله سبحانه لأهل الصدق فى دعائه والاستعاذة به من كل مكروه .

(ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(بَدَا لَهُمْ) : ظهر للعزيز وأهل مشورته .

(الْآيَاتِ) : العلامات الدالة على براءته .

(أَعْصِرُ خَمْرًا) : أى أعصر عنبًا ، سمى باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود .

(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) : أخبرنا بمآل ما رأيناه فى المنام .

التفسير

٣٥ - (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) :

أى ثم ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد ما رأوا العلامات الشاهدة ببراءة يوسف وانحراف امرأته والعلامات الدالة على أنها مصرة على مخالطته غير مكترثة بالفضيحة .

(١) من الآية ٥١

بدا لهم من بعد ذلك أن يسجنوا يوسف -عليه السلام- حتى زمن تنقطع فيه الإشاعة ويبدو للناس من سجنه أنه هو الذى أرادها بسوء فلهذا عوقب ، وليكون وجوده فى السجن حائلا بينها وبينه حتى لاتعود إلى مراودته .

تنبيه : لو أكره رجل على الزنى بالسجن فعليه الامتناع ولو سجن ، فإن فعل فهو آثم بالإجماع : انظر القرطبى فى تفسير الآية .

٣٦- (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) :

يطلق الفتى على الشاب ، من الفتاء وهو الشباب ، ويطلق أيضًا على العبد صغيرًا كان أو كبيرًا كما قاله الماوردى .

وكان الفتيان اللذان دخلا السجن بصحبة يوسف عبدين للعزيز ، أحدهما ساقيه ، والآخر صاحب طعامه وقيل :خبازه ، وروى بشأنهما روايات لا سند لها فلذا ضربنا صفحًا عنها والمعنى : ودخل السجن مع يوسف فتيان من عبيد الملك ورأى كل منهما فى نومه حلمًا أحس بحاجته إلى تأويله لتستريح نفسه ، فإن السجين كثير الخوف من المستقبل محتاج إلى الطمأنينة وقد اعتاد البشر من قديم على الاستعانة بالأحلام للكشف بها عن المجهول ، وإذا لم يستطع الحالم تأويل حلمه لجأ إلى من يحسنه ويشتهر بذلك ، وكان يوسف -عليه السلام- يخبر السجناء ببعض الغيوب - كما سيأتى بيانه - فلهذا أخبراه بحلميهما ، قال أحدهما : إنى أرى فى منامى أننى أعصر عنبًا ليتحول إلى خمر بعد حين ، وقال الآخر : إنى أرى فى منامى أننى أحمل فوق رأسى خبزًا تنقره الطير وتأكل منه ، ثم قالا له بعد أن عرضا عليه حلميهما.

(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى أخبر كُلاًّ منّا بتأويل حلمه الذى عرضه عليك مفصلا : إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الأحلام ، حيث إنك تعودت أن تفسر للسجناء أحلامهم قبل أن نرى حلمنا .

وتأويل الإحسان بذلك هو الأقرب إلى المقام ، حيث عرضا حلميهما عليه ، لأنهما جربا خبرته مع غيرهم فى تأويلها إلى درجة الإحسان .

ومن المفسرين من حمله على إحسان العلم ، وبه قال الفراء ، ومنهم من حمله على الإحسان فى المعاملة وذلك لأنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويساعد المحتاجين ويواسى السجناء ويسرى عنهم ويصبرهم .

وقيل: معناه من المحسنين إلينا إن فسرته لنا وأرحت قلوبنا .

واختلف فى رؤياهما فقيل إنها مصطنعة وليست حقيقية ، فعن ابن مسعود : قال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرب هذا الفتى العبرانى ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا ، قاله ابن مسعود .

وقيل: إنها صحيحة وهو الظاهر ، قال ابن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها .

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾)

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) :

لما طلب السجينان من يوسف عليه السلام أن يعبر لهما حلميهما وقالا له : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحسِنِينَ) أخبرهما بما يحقق صحة ما اعتقداه فيه من أنه ممن يحسنون تأويل الأحلام

تحدثاً بنعمة الله عليه ، وذلك أنه قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما قبل حضوره إليكما بنوعه وأوصافه ، فقد كان من عادته ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قبل حضور الطعام إليهما ، يقول لهما : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كذلك بعد حضوره ، وأطلق التأويل على ذلك تشبيهًا له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان فى الإخبار بالغيب .

ولما آنس منهما الثقة به وحسن الظن فيه ، حيث قالا له : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أراد أن يفهمهما مصدر هذا الإحسان ، ومنشأ هذا العلم الذى تجلى به واستحق به صفة الإحسان ، فقال مخاطبًا إياهما مشيرًا إلى ما عنده من العلم .

(ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى ذلكما الذى عرفته من تأويل الرؤيا والإخبار بالمغيبات ، بعض ما علمنيه ربى بالوحى أو الإلهام من العلم ، فلست أخبركما به تكهنًا فما أنا بكاهن ، وقد علمنى ربى إياها لأنى تركت ملة قوم مشركين لايؤمنون بالله على الوجه الذى يليق بجلاله ، بل يشركون معه غيره ، وهم بالآخرة هم كافرون ، فلا يؤمنون بالبعث ولا بالنشور ولا بالثواب ولا بالعقاب ، والمراد من تركه للتهم أنه لم يدخلها أصلا ، ولهذا قال فى الآية التالية : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

٣٨ ـ (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) :

أى تركت ملة الوثنيين من قومى ، حيث نشأت متبعًا ملة آبائى الذين أرسلهم الله لهداية الخلق إلى ملة التوحيد ، وهم إبراهيم ومن بعده ولده إسحق ، ثم حفيده يعقوب والد يوسف عليهم السلام .

(مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) :

أى ماصح ولا استقام لنا معاشر الأنبياء ، أن نشرك بالله أى شىء من الكائنات العاقلة وغيرها ، فكلها مخلوقة لله وآيات شاهدات بوجود الله ووحدانيته ، فلا يصح أن نعبدها مع الله .

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى ذلك المنهج الذى سلكناه فى عقيدتنا ناشئ من فضل الله علينا ، حيث أيدنا بالنبوة وجعلنا أهلا لتبليغ رسالته إلى الناس ، وقيادتهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ومن فضله على الناس أيضا ، حيث وفقنا لإرشادهم إلى توحيده ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله بتوحيده وإجابة المرسلين إلى العمل بما جاءهم به ، مع أنه تعالى أقام الأدلة والآيات فى الأنفس والآفاق على استحقاقه وحده للعبادة .

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(يَاصَاحِبِيِ السِّجْنِ) : المراد بهما الفتيان اللذان دخلا معه السجن ، ورأيا فى منامهما الحلمين وعرضاهما عليه ليعبرهما لهما .

(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) : متعددون لا ارتباط ولا اتفاق بينهم .

(القَهَّارُ) : الغالب الذى لا يدانى فى قهره ولا يعارض فى مراده ، ولا يستعصى عليه جبار ولا يفوته مطلوب . (مِنْ سُلْطَانٍ) : من حجة .

(أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا) : أسماء اتخذتموها دون أن يكون لها مسميات على الحقيقة ..

التفسير

٣٩ - (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

بين الله تعالى فيما سبق من الآيات أن يوسف لما دخل السجن صحبه فتيان وأنهما رأيا حلمين ، وطلبا من يوسف عليه السلام أن يعبرهما ، وأن يوسف قبل أن يعبرهما ذكر للسجينين المذكورين أنه اعتاد معهما أن يخبرهما بالغيب قبل حدوثه ، فكان لا يأتيهما طعام إلا أخبرهما بنوعه وحاله ووصفه قبل مجيئه ، حتى إذا جاءهما كان على وفق ما حدثهما به ، ثم بين لهما أن مصدر العلم بذلك هو الله ربه ، فهو الذى علمه إياه ، ولم يكن من باب الكهانة والتنجيم ، وأنه ترك ملة قومه المشركين ، فلم يشاركهم فى شركهم وكفرهم بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأنه لا يصح له ولا لأحد أن يشرك بالله شيئا ، وأن معرفة البشر بوحدانيته تعالى من فضل الله عليهم .

وجاءت هذه الآية لإقامة الدليل لصاحبى السجن على فساد الشرك ، وبيان أن الحكم فى أمر العباد ليس إلا لله تعالى ، وأنه جل وعلا أمر أن لا يعبد أحد سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لإفسادهم فطرتهم وسوء اختيارهم ، وأنت ترى من عرض هذه المعانى لتلك الآيات ، أن يوسف عليه السلام - لم يتعجل إجابة صاحبى السجن بتفسير حلميهما كما طلبا ، بل بدأ يمارس معهما ما أعده الله له من النصح والإرشاد لعباده ، والهداية إلى توحيده وعبادته ، كما هو شأن آبائه المرسلين عليهم السلام . وكان يرجو بذلك أن يهديهما الله تعالى إلى الحق ، فمن اهتدى منهما كان من أهل النجاة والسعادة ، ومن نجا منهما كان داعيا لمن حوله من بطانة العزيز إلى توحيد الله تعالى ، وكأنه يقول لهما : عندى العلم بتأويل رؤياكما فأنتما تعلمان أنه لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما بتأويله قبل أن يحضر إليكما ، ولكن تعالوا فاسمعوا أولا ما يطهر عقيدتكما من الشرك ، ويهديكما إلى معرفة الواحد الديان قبل أن أعبر لكما رؤياكما ، ثم قص عليهما مصدر علمه بالتأويل ، وتحدث عن ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وأنه لا يصح الإشراك بالله ، لأنه لو تعددت الآلهة وتفرقت لفسدت السموات والأرض ، وهذا المعنى الأخير هو الذى أشار إليه قوله تعالى حكاية عنه :

(يَاصَاحِبَىِ[١] السِّجْنِ ءأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

والمراد بصاحبي السجن الفتيان اللذان دخلا السجن معاقبين معه : وناداهما بعنوان الصحبة له فى السجن لأن السجن مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، التى تصفو فيها مودة نزلائه فلهذا ناداهما بعنوان الصحبة له ، ليقبلا عليه ويقبلا منه ما ينصحهما به .

والمعنى : يارفيقى اللذين رافقانى وصحبانى فى السجن أخبرانى : أأرباب شتى متفرقون لا ارتباط بينهم ولا اتفاق، خير لهذا الكون، أم الله المنفرد بالألوهية والخلق والإيجاد . الغالب لكل ما فى السموات والأرض ، فلا يتعاصى عليه مقدور فيهما ، ولا يمتنع عليه أن يخلق غيرهما ، فكيف يعبد المشركون سواه ، مع أنه مخلوق لله ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا

وبعد أن نبه يوسف صاحبي السجن إلى فساد تعدد الأرباب ، بين لهما سقوط منزلتها وفقدان أهليتها للربوبية فقال لهما كما يحكيه الله تعالى :

٤٠ - (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) :

الخطاب فى قوله (مَا تَعْبُدُونَ) لصاحبي السجن وقومهما ، ولذا قال بعد ذلك (سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم) بخطاب الجماعة أو المراد بالجمع مافوق الواحد ، ثم عطف عليهم آباءهم .

والمعنى : ما تعبدون ياقوم عزيز مصر إلا أسماءً ليس لها مسميات فى الحقيقة فكل ما عبدتموه وأطلقتم اسم الألوهية عليه لا يستحق الألوهية ، وتكون عبادتكم لتلك التى زعمتموها آلهة ، عبادة أسماء ليس لها مسميات فى الواقع .

(مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) :

أى ما أنزل الله بألوهيتها من حجة تصحح ألوهيتها وتسوغ عبادتها .

(إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) : ماالحكم فى الألوهية وغيرها إلا لله سبحانه ، والله لم يحكم بها لأحد سواه ، لأنه لا إله غيره ، ولا يستحق الألوهية سواه فكل ما عداه عبده ومحتاج إليه ، فلهذا (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) : وعقب هذا بقوله (ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) .

(١) أصله يا صاحبين لى فى السجن فأضيف الصاحبان إلى السجن الذى هو ظرف لهما وموضع لصحبتهما ، ومن هذا الاستعمال قول العرب : يا سارق الليلة أهل الدار : أى ياسارقا فى هذه الليلة أهل الدار .

هكذا يحكى الله تعالى ما دار بين يوسف وصاحبيه فى السجن وخلاصته : أنه أعلمهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة لا تصلح للألوهية ، وأنها أسماء بلا مسميات وألوهيتها دعوى بغير دليل ، وأن المستحق للألوهية هو الله وحده ، ولهذا لم يحكم بها لسواه ، بل أمر أن لا يعبدوا غيره ، وأخبر أن ذلك هو الدين المستقيم الذى أجمعت على استقامته وصحته الأدلة النقلية والعقلية ، ثم قال :

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى ولكن أكثرهم يجهلون أن ذلك هو الدين المستقيم دون سواه ، لأنهم لم يستعملوا عقولهم فى الاستدلال على الحق سبحانه بآياته .

وبعد أن بين يوسف عليه السلام لصاحبي السجن أن عبادة الله تعالى هى الحق ، وأنها خير لهما من عبادة الأرباب المتفرقين الذين ليس لهم من صفة الألوهية أدنى نصيب ، وأن الحكم لله وحده فى الكون كله ، فلا ألوهية لأحد سواه ، وأنه تعالى أمر أن لا يعبدوا إلا إياه ، وأن هذا هو الدين القيم – بعد أن بين لصاحبي السجن كل ذلك – شرع يعبر لهما ما رأياه فى النوم ويفسره لهما فقال :

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(فَيَسْقِي رَبَّهُ) : أى فيسقى سيده . (تَسْتَفْتِيَانِ) : تطلبان الفتيا .

(عِندَ رَبِّكَ) : عند سيدك . (بِضْعَ سِنِينَ) : البضع ، العدد من الثلاث إلى التسع ، واشتهر أن يوسف مكث فى السجن سبع سنين .

التفسير

٤١ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) :

كرر يوسف النداء هنا لصاحبي السجن بعد أن أطال الحديث معهما فى دعوتهما إلى الحق ، تنبيهًا على أنه سيدخل بهما موضوعًا آخر مغايرًا له ، وهو تعبير حلميهما الذى طلباه ، يقول يوسف : ياصاحبى فى السجن ، إليكما تعبير رؤيا كليكما ، أما أحدكما - وهو الذى رأى فى منامه أنه يعصر خمرًا - فإنه يعود إلى خدمة سيده الملك بعد أن يعفو عنه ويخرج من السجن ، وسيقوم على شرابه فيسقيه خمرًا ، وأما الآخر - وهو الذى رأى فى منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل منه الطير - فإنه يصلب فتأكل الطير من رأسه ، ثم أغلق الباب دون التساؤل أو التضرر مما أفتاهما به فقال :

(قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) :

أى أتم الأمر الذى كنتما تستفتيان فيه وأحكم ، ولم يعد فيه مجال للافتراض أو العدول عنه ، فهو إخبار موافق لما علمه ربه إياه وأرشده إليه ، وليس فيه حدس ولا تخمين ، والمراد بالأمر الذى فيه يستفتيان : ما رأياه من الرؤيين ، وليس المراد مآلهما الذى هو نجاة أحدهما وهلاك الآخر - كما قال العلامة أبو السعود - فكأنه قال - عبرت لكما رؤييكما وأنا واثق من صدق تعبيرهما .

٤٢ - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) :

أى وقال يوسف للسجين الذى ظن نجاته من صاحبى السجن - وهو الذى رأى فى منامه أنه يعصر لسيده الملك خمرًا - وأفتاه بأنه سيعود إلى خدمته ، قال يوسف لهذا السجين : اذكرنى عند سيدك الملك حين تعود إلى خدمته ، وحدثه عن تعبيرى لرؤياك ورؤيا صاحبك حتى تحقق أمرهما على ما أخبرتكما ، وأخبره أنى مظلوم حبست بلا ذنب ، لعله يخرجنى من السجن ، ويمحو هذا الظلم عنى .

وكان يوسف يرجو أن يسارع بإخبار الملك حين يعود إلى خدمته . وفاء بعهده معه ، وإدراكًا منه لما يقاسيه السجين فى السجن من العذاب النفسى . والحرمان من الحرية ، فقد شاركه فى ذلك . ولكن الشيطان الذى يكره الوفاء بالعهد أنساه تذكير سيده الملك بأمر يوسف . حيث شغل قلبه بما استجد له من نعمة الحرية والعودة إلى العمل فى قصر الملك . وشواغل الخدمة المتتابعة لسيده . فمكث يوسف فى السجن بعد خروج صاحبه السجين بضع سنين - والبضع من الثلاث إلى التسع كما تقدم - ويقال إنه مكث فى السجن سبع سنين .

وأعاد بعض المفسرين الضمير فى قوله تعالى :(فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) إلى يوسف عليه السلام . أى فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه سبحانه . فلجأ إلى صاحبه السجين وقال له : اذكرنى عند ربك - أى سيدك الملك - فعاقبه الله بأن أبقاه فى السجن بضع سنين ، جزاء له على تركه الاعتماد على الله تعالى . والميل فى طلب النجاة إلى عبد من عبيده . وكان عليه أن يشكو إلى الله ويستغيث به .

وأصحاب هذا القول اعتمدوا على أحاديث واهنة لا يصح الأخذ بها . وما يظن أحد من المنصفين وأهل التحقيق أن يوسف ترك الشكوى إلى الله . وهو الذى استعاذ بالله من خيانة العزيز الذى أحسن مثواه . وعف عن الحرام والإثم الذى كانت تدفعه إليه زوجته الخاطئة بشتى المغريات . وهو الذى دعا السجينين إلى توحيد الإله سبحانه وترك الأرباب المتفرقين ، الذين هم أسماء بلا مسميات . والحق ما قلناه أولا من أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو ساقى الملك . والدليل الحاسم على ذلك هو قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ » : أى وقال الذى نجا منهما وتذكر يوسف بعد مدة طويلة : الخ . كما أنه لا مجال لأن يتسلط الشيطان على نبى فينسيه ذكر ربه وهو يقول سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[1] على أن الأخذ بالأسباب مشروع قال تعالى : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »[2] .

(١) الإسراء ، من الآية : ٦٥ (٢) الملك ، من الآية : ١٥

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(عِجَافٌ): جمع عجفاء على غير قياس[1] والعجفاء الهزيلة . (الْمَلَأُ) :الأشراف والمراد بهم هنا الكهان والحكماء. (أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ) : فسروها لى وبينوا عاقبتها .

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) : أخلاط أحلام لاتؤول ، والأضغاث جمع ضغث . يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، وقد استعير للرؤيا الغامضة لفظ الأضغاث ، لأنها أخلاط من أحاديث العقل الباطن وخيالاته ومخاوفه وآلامه وآماله .

التفسير

٤٣ -(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) :

بعد أن عبر يوسف الرؤيين وتحقق تأويله لهما ، حيث قتل الخباز وصلب ، وأخرج الساقى من السجن وأعيد إلى خدمة الملك ، بقى يوسف فى السجن ، ونسى الساقى أمره ، فساق الله سببًا يخرج به يوسف من السجن عزيزًا كريمًا ، وذلك أن ملك مصر رأى فى منامه رؤيا أزعجته ، فجمع كبار الكهنة والحكماء فى مملكته وقال لهم مستحضرًا للصورة التى شاهدها فى منامه : إنى أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع بقرات فى غاية الهزال ، وأرى سبع سنبلات خضر قد امتلأت بالحب ولم تجف بعد ،

(١) القياس أن تجمع على عجف كحمراء وحمر .

وسبع سنبلات أخر قد يبست وجف حبها ونضج ، وبعد أن قص هذه الرؤيا على حكمائه ومستشاريه من الكهنة ناداهم قائلا :

(يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) :

أى يأيها الرؤساء من الكهنة والحكماء فسروا لى رؤياى ، وبينوا لى حكمها ومآلها : إن كنتم لجنس الرؤيا تعرفون تفسيرها ، حتى تستطيعوا أن تنتقلوا من الصور الرمزية المشاهدة فى المنام ، إلى صور وأمثلة لها فى حقائق الحياة ، وعَبْرُ الرؤيا مأخوذ من العبور وهو المجاوزة ، تقول عبرت النهر أى قطعته وجاوزته ، وكذلك يفعل مفسر الرؤيا ، فإنه يعبر بها من الخيال إلى الحقيقة ، أما تأويلها فمعناه بيان مآلها فى ظاهر الحياة ، وعبر الرؤيا وتعبيرها بمعنى واحد ، غير أن الأول لغة القرآن ، فهو أولى من الثانى ، وبعد أن سألهم إفتاءه فى رؤياه إن كانوا يستطيعون عبر الأحلام أظهروا عجزهم ،وذلك ما يحكيه الله تعالى بقوله :

٤٤ ــ (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) :

أى قال الملأ من الكهان والحكماء : هذه الرؤيا أخلاط أحلام كأضغاث النبات المختلطة . فلا تأويل لها عندنا ، يريدون بذلك أن يخرجوا رؤيا الملك من جنس الرؤى الصادقة التى يمكن تأويلها لأهل العلم ، وأن يجعلوها من جنس الأحلام الكاذبة ، التى لا يستطاع تأويلها ، ولهذا قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) ويجوز أن يكون هذا القول منهم اعترافًا بقصور علمهم عن تأويل الأحلام مطلقًا لأنهم ليسوا بنحارير[1] ــ كما قال أبو السعود ــ وإطلاق الأحلام على الكاذب منها والرؤى على الصادق منها عرف غالب ، وإن كان كلاهما عامًا فى الصادق والكاذب ، ولهذا قالوا أخلاط أحلام ، يريدون أنها ليست من الأحلام الواضحة التى يمكن تأويلها ويصدق مدلولها وقد سوى صاحب القاموس بينهما بقوله : الحلم بالضم وبضمتين الرؤيا .

(١) أى ليسوا علماء متعمقين فى تأويل الأحلام مع أن لها تأويلا .

(وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) : قرئ بضم همزة (أُمَّةٍ) وتشديد ميمها مفتوحة[1] ، أى وتذكر بعد جماعة كثيرة من الزمن ، قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد . وفى المعنى جمع : أ هـ ، وكل جماعة كثيرة فهى أمة . (ٱلصِّدِّيقُ) : الكثير الصدق .

التفسير

٤٥ - (وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) :

أى وبعد أن عرض الملك رؤياه على رهبانه وحكمائه . وعجزوا عن تأويلها قائلين «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» قال الذى نجا من صاحبى يوسف فى السجن ، والتحق بخدمة الملك ساقياً له . وقد تذكر يوسف وقدرته العظيمة على تأويل الرؤيا . وأنه أوصاه أن يذكره عند سيده لعله يخرجه من السجن لأنه مظلوم « وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا » للملك وأهل مجلسه : أنا أخبركم بتأويل حلم الملك بعد أن أعرفه من عليم بتأويل الأحلام فأرسلونى إليه لأسأله .

٤٦ - (يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسَاتٍ) :

أى فأرسلوه إليه : فناداه نداءً يشتمل على الثقة بصدقه العظيم فى أمره كله ، وبخاصة فى تأويل الرؤيا حسبما جربه منه وشاهد أحواله ، إذ قال له فى براعة استهلال : يا يوسف

(١) وقرئ (بعد أمة) بكسر الهمزة وتشديد الميم ، ومن معانيها . النعمة ورغادة العيش ، وقرئ (بعد أمة) بهمزة مفتوحة . وميم مفتوحة مخففة وهاء مهملة . أى بعد نسيان . ومنه قول الشاعر :

أمهت وكنت لا أنسى حديثا كذاك الدهر يودى بالعقول

أيها البليغ الصدق : أفتنا فى رؤيا سبع بقرات سمان . يأكلهن سبع بقرات شديدة الهزال وأفتنا فى سبع سنبلات خضر مليئة بالحب وسبع سنبلات أخر يابسات ناضجات الحب ، وبين لنا مآلها وحكمها فى عالم الشهادة .

وإنما قال ليوسف (أفتنا) بضمير الجمع مع أنه وحده هو المستفتى . للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له شأن فى أمور الناس . وأنه فى حكايتها سفير لغيره ، ولهذا ختم استفتاءه بقوله :

(لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) :

أى لكى أرجع إلى من بيدهم الأمر ليعلموا تأويلها ويعملوا بمقتضاه ، وليعلموا فضلك ومكانك العلمى العظيم مع ما أنت فيه من الحال ، فينتبهوا إليك ويخلصوك مما أنت فيه .

ولم يقل : لأرجع إلى الناس ليعلموا ، بل عبر بأسلوب الرجاء (لَعَلِّى أَرْجِعُ) الخ جريًا على نهج الأدب مع يوسف ، واحترازًا عن المجازفة بأسلوب اليقين ، لأنه لم يكن على يقين من رجوعه ، فربما اخترمته المنية قبل أن يعود إلى مجلس الملك ، كما أنه لم يكن على يقين من بقائهم حتى يعلمهم ، فإن العالم بذلك كله هو الله ـ تعالى ـ وحده .

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(دَأَبًا) : مصدر دأب فى العمل ـ أى جدّ فيه . (سَبْعٌ شِدَادٌ) : سبع سنين صعاب على الناس . (مِمَّا تُحْصِنُونَ) : مما تدخرون من البذور . (يُغَاثُ النَّاسُ) : من الغيث أى يمطرون فى

وقت الحاجة ، يقال غِيثَتْ البلاد إذا مطرت فى وقت الحاجة ، ولذا يسمى المطر فى هذه الحالة غيثا ويصح أن يكون من الغوث ، يقال أغاثنا الله أى أمدنا برفع المكاره حين داهمتنا .

التفسير

٤٧ ـ (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) :

لما انتهى رسول الملك من إخبار يوسف برؤيا الملك التى أزعجته ، أول يوسف البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبات ذات زروع وثمار كثيرة ، وأول البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين مجدبة تؤكل فيها حبوب جافة مخزونة فى سنابل جافة ؛ ووصف الطريقة التى يجتازون بها أزمة المجاعة فى سبع سنين متتابعة ، فقال لسائله بعد إحساسه وإدراكه أن السائل هو الملك : تزرعون الأرض سبع سنين دائبين جادين غير متوانين ولا كسلين ، حتى تجود الأرض بأقصى خيراتها وأغزر ثمارها وحبها ، فتلك السنوات السبع ذات الزروع والثمار الغزير هى تأويل البقرات السبع السمان والسنابل الخضر اليانعات ، فما حصدتموه فى كل سنة فاتركوه واختزنوه فى سنابله ولا تجردوه لكى ينجو من أكل السوس ، إلا قليلا من حبها تعدونه للأكل كل عام فليس عليكم بأس من تجريده من سنابله .

فأنت تراه قد استدل على زراعة القمح سبع سنين دأبا بالسنبلات السبع الخضر فهى إشارة إلى السنوات السبع الخصيبة ، واستدل على تخزين القمح فى سنابله سبع سنين بالسنبلات السبع اليابسات ، واستدل على أن السنوات السبع الأخيرة ستكون جدباء وأنه يجب الاحتياط لها بتخزين الطعام ، استدل على ذلك بالبقرات السبع العجاف التى أكلت البقرات السبع السمان كما سيأتى بيانه ، ويبدو أن تخزين القمح فى سنابله لمدة طويلة تصل إلى سبع سنين لم يكن معروفًا لدى قدماء المصريين ، فقد كانوا يزرعون لكل عام ولا يحرمون من فيضان النيل سبع سنين متتابعة فلذا أرشدهم يوسف إلى هذه الطريقة المثلى فى التخزين لمدة طويلة ، ولا عجب فى أن يخبرهم بها

يوسف - عليه السلام - مع أنه لم يألف مثل ذلك ، فقد علمه ربه علومًا كثيرة ، وحسبك دليلا على ذلك قوله لصاحبى السجن : « ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ » .

وقد قال القرطبى تعليقًا على هذه الآية ما يلى :

هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ، ولا خلاف فى أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه الخ .

ثم شرع يوسف يبين بقية التأويل فقال :

٤٨ - (ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ) :

أى ثم يأتى من بعد السنين الخضراء التى تجدون وتتعبون فى الزرع فيها فتأكلون منه وتدخرون من حبه - يأتى من بعد ذلك - سبع سنين صعاب على الناس يأكلن ما قدمتم لهن من الحب المتروك فى سنابله إلا قليلا مما تدخرونه منها لبذور الزراعة ، وإسناد الأكل اليهن مع أن الآكلين هم الناس ، على سبيل المجاز كما فى قولهم : نهاره صائم ، وفى هذه الآية تأويل أكل البقرات السبع العجاف التى هى رمز للسنوات السبع الجدباء للبقرات السبع السمان التى هى رمز للسنوات السبع الخصبة .

٤٩ - (ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) :

أى ثم يأتى من بعد ماذكر من السنين الخصيبة والجدباء عام فيه يمطر الناس بالغيث الذى كانوا محرومين من تتابعه وغزارته سبع سنين ، وفيه يعصرون ما يقبل العصر من الثمار والحب وغيرهما ، كالعنب والزيتون والسمسم والقصب . وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع .

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مَا بَالُ النِّسْوَةِ) : ماحالهن .

(ما خَطْبُكُنَّ) : ما شأنكن ، والخطب الأمر الذى يستحق أن يخاطب المرءُ فيه صاحبه .

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ) :تنزيها لله وتعجبًا من نزاهة يوسف .

(حَصْحَصَ الْحَقُّ) : وضح بعد خفاء ، وأصله بمعنى تبينت حصة الحق من حصة الباطل.

(لَايَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) : أى لا ينفذه ولا يوصله إلى غايته .

التفسير

٥٠ ـ (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ مَابَالُ النِّسْوةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) :

بعد أن سمع رسول الملك من يوسف تأويل الرؤيا عاد وأخبره بما سمعه من يوسف ، ويبدو أنه حدثه بعلمه وفضله وخلقه وأنه قد حُبس ظلمًا سنين كثيرة ، فعرف فضله على خاصته وكهَّانه وأدرك أن حقه فى الحرية والكرامة ينبغى أن يرد إليه .

وقال : ائتونى بيوسف ، فلما جاءه الرسول يدعوه إلى لقاء الملك لم يشأ أن يجيبه إلى طلبه قبل أن تظهر براءته ، بل قال له : ارجع إلى سيدك فاسأله ماحال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ودعونه إلى الفحشاء ، يريد بذلك أن يحقق الملك فى شأنهن معه ليعلم نزاهته مما نسبته إليه من مراودته إياهن .

وإنما لم يتعرض يوسف لامرأة العزيز مع أنها أصل البلاء ، محافظة على حقها ، وتفاديًا لمكرها ، وأما النسوة فقد كان يطمع فى شهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ؛ لذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى . ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك ، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله :

(إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) : مجاملة لهن . واحترازًا من خصومتهن له دفاعًا عن أنفسهن ، إذا سمعن أنه ينسبهن إلى الفساد .

٥١ - (قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ) :

قال الملك لما جاء الرسول بطلب يوسف أن يحقق مع النسوة : ماشأنكن حين راودتن يوسف وخادعتنه عن نفسه بترغيبه فى إطاعة مولاته هل وجدتن فيه من سوء وريبة .

(قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ) .

أى قلن مجيبات للملك : « حَاشَ لِلّهِ » أى تنزيها لله . يردن بذلك تبرئة يوسف والاعتراف بنظافته وعفته . ولذا عقبن هذه العبارة بما أردنه منها وهو قولهن :

(مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ) : مبالغة منهن فى نزاهة يوسف عن جنس السوء . فضلا عن الفحشاء .

(قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : مقرة بالحق فى مجلس التحقيق .

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) : أى الآن فى هذا المجلس تبين الحق ووضح بعد خفاء ، أنا راودته عن نَّفْسِهِ

(وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) :فى تنزيه نفسه عن مراودته لى عن نفسى ، وهكذا يحق الله - تعالى - الحق على رؤوس الأشهاد ، إظهارًا لكرامة الصادقين من عباده ، وبذلك تحقق ليوسف ما أراده من ظهور براءته ونزاهته قبل خروجه من السجن فى هذا المجلس الحافل ،

حتى يطمئن الناس إلى طهره يقينا ، ولا سيما العزيز الذى رباه ، ولذلك قال يوسف عقيب ذلك .

٥٢ ـ (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) :

أى ذلك الذى تقدم من البقاء فى السجن حتى يسأل الملك النسوة ، وتظهر براءتى مما نسبته امرأة العزيز إلىّ ، ليعلم العزيز قبل خروجى من السجن علمًا صادرًا عن اعتراف زوجته ـ ليعلم ـ أنّى لم أخنه بالغيب وراء الأبواب المغلقة والستور المرخاة ، كما زعمت امرأته ، وليعلم أيضًا أن الله تعالى لا يُنَفِّذ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى السداد بل يبطله كما فعل بزوجته ولو كنت خائنًا له فيها لفضحنى ولم يهد كيدى كما فعل بها .

ويعلم مما تقدم من التأويل أن هذه الآية حكاية لما قاله يوسف ـ عليه السلام ـ تبريرًا لإصراره على إظهار براءته قبل خروجه من السجن ، حتى لا يحمل خروجه قبل ذلك على أنه من باب العفو عنه مكافأة له على تأويل رؤياه ، ولعله قال مضمون هذه الآية : (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ) الخ بعد أن عاد إليه رسول الملك وأخبره بما جرى فى مجلس التحقيق من ظهور براءته ، وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » .

حكاية لكلام يوسف بعد ما ظهرت براءته بإقرار النسوة أمام الملك وجلسائه .

وقيل إن الآيتين حكاية لكلام امرأة العزيز ، ومعنى هذه الآية على أنها حكاية لكلامها : ذلك الذى قلته عن يوسف وهو غائب عن هذا المجلس وحبيس فى السجن من أننى راودته عن نفسه ، ليعلم أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال غيبته عن هذا التحقيق ، بل قلت الحق الذى أنكرته عبر هذه السنين ، وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وسيأتى بيان قوله تعالى « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » على الوجهين المذكورين .

واعلم أن يوسف ـ عليه السلام ـ بلغ من النزاهة وكرم النفس مبلغًا عظيمًا وحسبك أنه لم يتعجل الخروج قبل أن تظهر براءته علنية على هذا النحو المشرف ، مع أنه

لبث فى السجن سنين كثيرة قال ابن عطية تعليقًا على ذلك :كان هذا الفعل من يوسف أناة وصبرًا ، وطلبًا لبراءة الساحة ، وذلك أنه خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة فيقول الناس : هذا هو الذى راود امرأة مولاه ، وقد صفح عنه الملك ، ويراه الناس أبدًا بتلك المنزلة ، فأراد أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، ويخرج بعد شرف البراءة ليحظى من الملك بالمرتبة السنية على طهر وكرامة ، فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك لينظر فى أمرى : هل سجنت بحق أو بظلم : ا ه ملخصًا ولقد أعظم النبى – صلى الله عليه وسلم – مكانته من الصبر والنزاهة وعزة النفس والكرامة فقال :

« إنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكريم[1] يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إسْحٰقَ ابنِ ابْراهيمِ قال – وَلَوْ لَبِثْتُ فِى السِّجْنِ مَا لَبِثَ ثُمَّ جاءَنِى الرّسولُ أَجَبْتُ – ثم قرأ : « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِع إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ».

الحديث : أخرجه الترمذى فى صحيحه – والحديث مروى فى الصحاح بعبارات متقاربة .

والنبى – صلى الله عليه وسلم – مع كونه يشير فى الحديث إلى مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، لكنه يومئ إلى أنه بالغ فى ذلك ، وأنه كان الأحوط أن يخرج حتى لا يعدل الملك عن إخراجه لأنه لم يجب طلبه بالحضور إليه ، ولأن هذه المرأة إن كانت زوجته أو زوجة وزيره فإن سؤال النسوة عنها سينتهى إلى فضيحتها ، فربما عدل عن سؤالهن لذلك ، وآثر إبقاءه فى السجن ، لا شتراطه للخروج شرطًا يؤدى تحقيقه إلى هذه الفضيحة ، فيظل مسجونًا ظلمًا .

وقال ابن عطية : فإن قيل : كيف مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم يذهب بنفسه عن حالة مدح بها غيره ، فالوجه فى ذلك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر له جهة من الجودة

(١) تكررت (ابن الكريم) ثلاث مرات .

يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج . ثم حاولت بيان عذرى وبراءتى بعد ذلك . لأن هذه القصص والنوازل معرضة لأن يقتدى بها الناس إلى يوم القيامة . فأراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - حمل الناس على الأحزم من الأمور حتى لاتضيع فرصة الخروج من السجن فى مثل ذلك ، وتنصرف نفس مخرجه عنه . وإذا كان يوسف قد أمن ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لايأمن ذلك فالحالة التى ذهب النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه إليها حالة حزم . وما فعله يوسف عليه السلام صبر وجلد : انتهى ملخصًا .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٩٥-١٩٧٩-٢٥٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
0399106